الفصل الثالث

خصائص يغلب عليها جانب الألفاظ

في القرآن الكريم خصائص امتاز بها من غيره ، وذلك أمر مسلَّم ، وقد كانت تلك الخصائص ـ وما زالت ـ مثار الإعجاب ، ومصدر الإعجاب من عصر النزول حتى الآن ، وحتى تقوم الساعة .

وقد لحظ العرب الخُلَّص في عصر النزول ، هذه الخصائص التي بدت لهم فوق ما يحسنون فراحوا ـ رغم عدائهم للقرآن وصاحبه ـ يثنون عليه ، ويصفونه بما يستطيعون من أوصاف الجمال والروعة ، وما حديث الوليد ابن المغيرة في وصف القرآن ببعيد عن الأذهان[1] .

وفي دراستنا لهذه الخصائص قسمناها ـ تسهيلاً للضبط ـ إلى قسمين كبيرين ..

أحدهما : خصائص يغلب عليها جانب الألفاظ ـ وهو ما ندرسه في هذا الفصل ـ وليس المراد بغلبة اللفظ طغيانه على المعنى ، بل المراد أنَّ الملحظ فيها إنما يرجع إلى اللفظ ، مع وفاء العبارة بالمعنى على أكمل وجه .

وذلك مثل فواتح السور[2] ، والتكرار المحكم ، والفواصل بين الآي .

---

(١) نريد بهذه الخصائص أمرين : ما لا وجود له خارج القرآن ، كفواتح السور ، وما له وجود خارج القرآن ، لكنه في القرآن على أكمل وجه ، وأدق تصوير ، فحرى ألا يعتبر ما في سواه ، وذلك كالتكرار المحكم ، وفي كل فإن ما نذكره تمثيل وليس استقصاء ، فكتاب الله لا تنتهي عجائبه .

(٢) تكلم عنها السيوطي في المتشابه : (الإتقان : ٢/٨-١٢) ، والزركشي في البرهان : ١/١٦٤ .

وثانيهما : خصائص يغلب عليها جانب المعاني ، لأنه الملحوظ فيها مع روعة اللفظ وتوافر مقومات الحسن فيه .

وذلك مثل ثراء معاني اللفظ في القرآن ، اختلاف الأغراض في السورة الواحدة ، دقة النظم بين تراكيبه .

وفي هذا الفصل ندرس الخصائص الآتية :

فواتح سور القرآن ـ فواصل آي القرآن ـ ألفاظ القرآن ـ النغم الصوتي لألفاظ القرآن ـ التكرار المحكم في القرآن .

١- فواتح السور :

ذكر السيوطي أنَّ ابن أبي الأصبع قد أفرد فواتح السور القرآنية في كتاب سماه « الخواطر السوانح في أسرار الفواتح ». ثم قال :« وأنا ألخص هنا ما ذكره مع زوائد من غيره»[1] ثم عرض أن فواتح سور القرآن تنحصر في عشرة أصول وهي :

الثناء : مثل : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ و ﴿ تَبَارَكَ ﴾ و ﴿ سُبْحَانَ ﴾ وجاء الثناء فواتح لأربع عشرة سورة .

حروف التهجي : مثل : « ألم » و« حم » وقد جاءت هذه الحروف فواتح لتسع وعشرين سورة سنعرض لها في شيء من التفصيل .

النداء : مثل : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ و﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ وقد جاء النداء فواتح لعشر سور : خمس بنداء الرسول ﷺ وهي : الأحزاب ، والطلاق ، والتحريم ، والمزمل ، والمدثر . وخمس بنداء الأمة وهي : النساء ، والمائدة ، والحج ، والحجرات ، والممتحنة .

الخبر : مثل ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ ﴾ و﴿ أَلْهَىٰكُمُ ﴾ وقد جاء الخبر فواتح لثلاث وعشرين سورة من سور القرآن .

---

(١) انظر : الإتقان في علوم القرآن للسيوطي : ٢/١٠٥ وما بعدها .

القَسَم : مثل : ﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ﴾ و﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴾ وقد جاء القَسَم فواتح في عشر سور .

الشرط : مثل : ﴿ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ ﴾ و﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ ﴾ وقد جاء الشرط فواتح لسبع سور ، وسيأتي الحديث عنها في شيء من التفصيل كذلك .

الأمر : مثل : ﴿ قُلْ أُوحِيَ ﴾ و﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ وكان الأمر فواتح لست سور ثنتين من طوال المفصَّل ، وأربع من قصاره .

الاستفهام : مثل : ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ ﴾ و﴿ عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ﴾ وكان الاستفهام فواتح لست سور أيضًا .

الدعاء : مثل : ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ ﴾ و﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ ﴾ وجاء فواتح لثلاث سور .

التعليل : وقد جاء فاتحة لسورة واحدة هي قوله تعالى : ﴿ لِإِيلَـٰفِ قُرَيْشٍ ﴾.

هذا .. وقد ذكر السيوطي في نهاية الحديث عن هذه الأصول قوله :

« هكذا جمع أبو شامة قال : وما ذكرناه في قسم الدعاء يجوز أن يُذكر مع الخبر ، وكذا الثناء كله خبر إلا « سَبِّحْ » فإنه يدخل في قسم الأمر ، و« سُبْحَانَ » يحتمل الأمر والخبر »[1].

ومعنى هذا أنَّ مرد هذه الأصول نوعان : نوع لا يحتمل توجيهًا غير المذكور فيه ، ونوع يمكن التصرف فيه حسب ما بيَّنه .

وليس هذا يعنينا ، إنما الذي أريد ذكره هنا أن الحديث عن هذه الأصول ليس بمستطاع ؛ لأن موضوعها القرآن كله ، ولذلك فإنني أعمد هنا إلى نوعين لأفصِّل الحديث عنهما وهما : ما كانت فواتحه حروفًا هجائية مقطَّعة ، ثم ما كانت فواتحه شروطًا .

---

(١) انظر : الإتقان في علوم القرآن للسيوطي : ص ١٠٦.

● **الحـروف :**

جاءت الحروف الهجائية غـير المؤتلفـة في كلمـات ذات معنـى متفَـق عليـه وضعًا لتسع وعشرين سورة على الوجه الآتي :

(أ) ما بدئ بحرف واحد ، وهي ثلاث سور :

﴿ صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ۝١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ ﴾ (ص:١،٢) (سورة ص ـ مكية النزول) .

﴿ قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ۝١ بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ ﴾ (ق:١،٢) (سورة ق ـ مكية النزول) .

﴿ نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ۝١ مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ ﴾ (القلم:١،٢) (القلم ـ مكية النزول) .

(ب) ما بدئ بحرفين ، وهو نوعان :

١- ما اختلف فيه حقيقة الحرفين وهو ثلاث سور :

﴿ طه ۝١ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ﴾ (طه:١،٢) (طه ـ مكية النزول) .

﴿ طسٓۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٖ ﴾ (النمل:١) (النمل ـ مكية النزول) .

﴿ يسٓ ۝١ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴾ (يس:١-٣) (يس ـ مكية النزول) .

٢- ما اتحد فيه حقيقة الحرفين ، وهو ست سور هي :

﴿ حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴾ (غافر:١،٢) (غافر ـ مكية النزول) .

﴿ حمٓ ۝١ تَنزِيلٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ (فصلت:١،٢) (فصلت ـ مكية النزول) .

﴿ حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴾ (الزخرف:١-٣) (الزخرف ـ مكية النزول) .

﴿ حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴾ (الدخان:١-٣) (الدخان ـ مكية النزول) .

﴿ حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ﴾ (الجاثية:١،٢) (الجاثية ـ مكية النزول) .

﴿ حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢ مَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعۡرِضُونَ ﴾ (الأحقاف:١-٣) (الأحقاف ـ مكية النزول) .

(جـ) ما بدئ بثلاثة أحرف . وهو ثلاثة أقسام بالنسبة لحقيقة الحروف المفتتح بها :

١- « آلم» وجاءت فاتحة لست سور :

﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ﴾ (البقرة:١،٢) (البقرة ـ مدنية النزول) .

﴿ الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴾ (آل عمران:١،٢) (آل عمران ـ مدنية النزول) .

﴿ الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ﴾ (العنكبوت:١،٢) (العنكبوت ـ مكية النزول) .

﴿ الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴾ (الروم:١،٢) (الروم ـ مكية النزول) .

﴿ الٓمٓ ۝١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ﴾ (لقمان:١،٢)(لقمان ـ مكية النزول).

﴿ الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ (السجدة:١،٢) (السجدة ـ مكية النزول) .

٢- « آلر » وجاءت فاتحة لخمس سور هي :

﴿ الٓرٰۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ﴾ (يونس:١) (يونس ـ مكية النزول) .

﴿ الٓرٰۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ (هود:١) (هود ـ مكية النزول) .

﴿ الٓرٰۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴾ (يوسف:١) (يوسف ـ مكية النزول) .

﴿ الٓرٰۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ (إبراهيم:١) (إبراهيم ـ مكية النزول) .

﴿ الٓرٰۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ ﴾ (الحجر:١) (الحجر ـ مكية النزول) .

٣- « طسم » وجاءت فاتحة لسورتين :

﴿ طسٓمٓ ۝١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴾ (الشعراء:٢،١) (الشعراء ـ مكية النزول) .

﴿ طسٓمٓ ۝١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴾ (القصص:٢،١) (القصص ـ مكية النزول) .

(د) ما بدئ بأربعة أحرف وهو سورتان كذلك :

﴿ الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ ﴾ (الأعراف:٢،١) (الأعراف ـ مكية النزول) .

﴿ الٓمٓرٰۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ ﴾ (الرعد:١) (الرعد ـ مكية النزول) .

(هـ) ما بدئ بخمسة أحرف وهو ـ كذلك ـ سورتان :

﴿ كٓهيعٓصٓ ۝١ ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ عَبۡدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴾ (مريم:٢،١) (مريم ـ مكية النزول) .

﴿ حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ (الشورى:١-٣) (الشورى ـ مكية النزول) .

ويسير من النظر يُبيِّن أن الحروف التي بدأت بها هذه السور ، تبلغ ـ بعد حذف المكرر ـ أربعة عشر حرفًا هي :

ا ـ ح ـ ر ـ س ـ ص ـ ط ـ ع ـ ق ـ ك ـ ل ـ م ـ ن ـ هـ ـ ي .

وقد أثار هذا النوع من الفواتح دهشة العرب النازل بلغتهم القرآن ، كما أثار جدلاً كبيرًا بين العلماء والمفسرين ؛ لأنهم رأوا فيه غرابة وعزة غير معهودتين في متعارف القول ومشهور الأساليب .

ونتج عن هذا الخلاف اتجاهان رئيسيان ..

الأول : يقضي بتفويض السر في ذلك إلى الله ، ويرى عدم الخوض فيه ، ويعده من المتشابه الذي لا يعلم حقيقته إلا الله .

ومن القائلين به خليفة الرسول أبو بكر الصِدِّيق ، وعليّ بن أبي طالب ، وعمر بن الخطاب ، وعثمان بن عفان ، وعبد الله بن مسعود ، فقد نقل السمرقندي أنهم قالوا : الحروف المقطَّعة من المكتوم الذي لا يُفسَّر ، وقال أبو حاتم : لا ندري ما أراد الله عَزَّ وجَلَّ بها[1] .

وقد تابع الشعبي هذا الرأي وقال : إنَّ لكل كتاب سرًّا ، وإنَّ سر هذا القرآن فواتح السور[2] ، هذه خلاصة هذا الاتجاه .

أما الاتجاه الثاني .. فيرى ضرورة تخريجها والبحث عن معانيها ومدلولاتها ، وقد تشعبت آراء هذا الفريق حول فهم معناها ، ويمكن تلخيص حصيلة ما قالوا به فيما يأتي :

---

(١) تفسير القرطبي : ١٣٤/٢ ـ ط . در الشعب .
(٢) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي : ٨/٢ .

١- منهم مَن يرى أنها ـ أي الحروف المبدوءة بها السور ـ أسماء لله سبحانه أو هي الاسم الأعظم ، ويُعزَى هذا القول لابن عباس رضي الله عنه وقد تابعه الكلبي وجعلها مقسمًا بها ، وفي كشاف الزمخشري كلام طويل حول رأي الكلبي في موضعها من الإعراب[١] .

٢- ويرى آخرون أنها أسماء للسور التي صُدِّرت بها ، ويُنسب هذا الرأي إلى زيد بن أسلم .

٣- وقال آخرون إنها رموز دالة على كلمات هي بعض حروفها . و﴿ الٓمٓ ﴾ مثلاً بعض حروف كلمة هي : أنا الله أعلم .... وهكذا .

وقد اختار الزجاج هذا الرأي حيث قال : أذهب إلى أن كل حرف منها يؤدي عن معنى ، وقد تكلمت العرب بالحروف المقطعة ، نظمًا لها ووضعًا بدل الكلمات التي الحروف منها[٢] .

وقد استدل على مذهبه بمأثور كلام العرب . من ذلك :

قُلْتُ لَهَا قِفِي قَالَتْ : قَافْ

يعني : وقفتُ .

وذكر السيوطي نصوصًا أخرى وردت عن العرب استعملت فيها الحروف المقطعة بدل الكلمات[٣] . وكذلك ابن جني في الخصائص[٤] .

٤- ويرى آخرون أن هذه الفواتح رموز يراد بها قيمتها العددية على طريقة « أبجد » ، ومن يرى هذا الرأي السهيلي حيث يقول : « لعل عدد الحروف التي في أوائل السور ـ مع حذف المكرر ـ للإشارة إلى مدة بقاء هذه الأمة »[٥] .

---

(١) الكشاف للزمخشري : جـ ١ .

(٢) معترك الأقران في إعجاز القرآن للسيوطي : جـ ١ .

(٣) تفسير القرطبي : ١٣٥/٢ ـ ط . دار الشعب .

(٤) الخصائص لابن جنى : ٣٠/١ .

(٥) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي : ١٤٨/٢ .

وقد تعقَّب هذا الرأي ابن حجر ، وحكم عليه بالبطلان كما ثبت عن ابن عباس رضي الله عنه النهي عن عد « أبجد » .

٥- وفريق آخر يرى أن هذه الحروف إشارة لورودها أكثر من غيرها في السور التي بدئت بها[١] .

٦- ونقل زكي مبارك في كتابه « النثر الفني » أن هذه الحروف هي وحدات صوتية تكوِّن لحنًا موسيقيًّا يراد به تحريك الشعور وإيقاظ الوجدان ، كما يكون ذلك في التراتيل الدينية لتهيئة النفوس لتلقي النصائح والإرشادات ، ويعزى هذا الرأي إلى مستشرق فرنسي يدعى « بلانشو »[٢] .

٧- ويرى فريق أنها أدوات للتنبيه ، عمد إليها القرآن ليكون في غرابتها ما يثير الالتفات .. ولكي يكون أبلغ في قرع الأسماع .

وقد اختلف القائلون بهذا الرأي في مَن هو المنبَّه ؟ الرسول ﷺ أم المشركون ؟

فأبو حيان يرى أنها تنبيه للمشركين إلزامًا لهم بالحُجَّة ، ليستغرق بها المشركون فيفتحوا لها أسماعهم ، فتجب عليهم الحُجَّة بسماع القرآن[٣] .

ويرى الفخر الرازي أن المنبَّه هو الرسول عليه السلام ؛ لأنه إنسان قد تشغله بعض الأمور[٤] .

وقد ارتضى الإمام الجويني ـ فيما حكاه عنه السيوطي ـ هذا الرأي ، وأخذ يعرض ما يراه مبررًا له[٥] .

---

(١) نشرت مجلة المصور بحثًا بالأرقام لعالِم مصري أجراه على سور القرآن كله يؤكد هذا الرأي حيث زادت هذه الحروف الفواتح على غيرها نسبيًّا .

(٢) بحث جديد في القرآن ـ محمد صبيح ـ ص ٢ .

(٣) البحر المحيط : ٣٤/١ .

(٤) التفسير الكبير للرازي : ٤٥٦/٦ .

(٥) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي : ١٣/٢ .

وذهب الزركشي إلى أن مجيء هذه الحروف في أوائل السور إشارة إلى غلبة مجيئها في كلمات هذه السور ، كما حاول أن يثبت وجه اختصاص كل سورة بما بدئت به بحيث لا تصلح ﴿ الٓمٓ ﴾ بدءًا لسورة قد افتتحت بـ ﴿ الٓر ﴾.. ذكر ذلك في تفصيل واف[1] .

من ذلك تكرار الخصومات في « سورة ص » حيث بدئت به ، ففيها خصومة النبي ﷺ مع الكفار ، والخصمان اللذان عند داود عليه السلام ، ثم تخاصم أهل النار ، ثم اختصام الملأ الأعلى ، ثم تخاصم إبليس في شأن آدم[2] .

٨- وذهب الشيخ طنطاوي جوهري إلى ما خلاصته : أنَّ القرآن كتاب سماوي ، والكتب السماوية تُصرِّح تارة وترمز أخرى ، وساق على ذلك دليلين:

أحدهما : أن اليهود كان لهم رمز ، يتضح ذلك من حساب الجُمَّل حيث جعلوا الحروف رموزًا للأعداد .

ثانيهما : كذلك فإنَّ النصارى قد اتخذوا الحروف رموزًا دينية معروفة فيما بينهم أيام نزول القرآن ، وكانت اللغة اليونانية هي الرسمية في مصر ، وكانوا يرمزون بلفظ « إكسيس » عن : يسوع المسيح ابن الله المُخَلِّص .

فالألف من « إكسيس » هي الحرف الأول من « إبسوس » يسوع ، والكاف هي الحرف الأول من « كرستوس » المسيح ، والسين مبدلة من حرف الثاء في « ثيو » الله ، والياء تدل على « إيوث » ابن ، والسين الثانية منها تشير إلى « توتير » المخلص ، ومجموع هذه الكلمات عندهم هو : يسوع المسيح ابن الله المُخَلِّص »[3] !؟

وهذا الرأي يبدو في ظاهره دفاعًا عن مبدأ الرمز بالحروف الوارد في القرآن الكريم وليس محاولة لفهم هذه الظاهرة الفريدة .

(١،٢) انظر : البرهان في علوم القرآن للزركشي : ١/١٧٠ ـ ط . الحلبي .

(٣) تفسير الجواهر للشيخ طنطاوي جوهري ـ انظر تفسير آل عمران .

٩- ويروي مالك بن نبي ، نقلاً عن « النقد الحديث» ، أن هـذه الفـواتح ترجـع إلى حالة اضطراب عضـوي يحـدث للـنبي عليـه السـلام في حالـة الكشـف والتلقي .

لكنه يدفع هذا الفرض بما هو معروف عـن الـنبي عليـه السـلام ؛ لأنـه كـان يمثـل أكمـل المعـادلات الشخصـية في نواحيهـا الثلاثـة : الخلقيـة ، والعقليـة ، والبدنية ، ولم يدع التاريخ أدنى ريب في هذه النقطة ، فلا مجال إذن لأن نتخيـل أي افتراض عن الـذات المحمديـة ، حتـى نشـرح هـذا الإبهـام أو ذلـك المـرض العضوي .

« ومن جهة أخرى لسنا نجـد في أدب هـذه الـذات الشخصـي الغـني ـ وهـو « الحديث» ـ أي أثر لتلك المغلقات ، ولا توجد أية روايـة مشـافهة عـن الـنبي مشتملة عن مثل هذا التصدير الرمزي»[1] .

هذا رده ، وهو دفع نـاجح بـلا شـك ، ولكننـا نـرى في المسـألة دفعًـا آخـر مستمدًّا من طبيعة الظاهرة نفسها لا من شيء خارج عنهـا ذاتًـا ، أو أدب ذات ، وحاصل هذا الرد :

« فقد تنبه السَّلَف إلى أن مجموع هذه الحروف ـ بغير المكرر منهـا ـ أربعـة عشر حرفًا هي نصف الحروف العربية .

كما أطال بعضهم النظر في هذه الحروف ، فلفتهم منها أنها تصف الحـروف الهجائية على أي وجه من الوجوه التي اصـطلح عليهـا علمـاء اللغـة بعـد نـزول القرآن بزمن طويل .

ففيها خمسة حروف مهموسة ، وعدد المهموس من الحروف عشرة ، وفيهـا نصف الحروف المهجورة وفيها ثلاثة من حروف الحَلق ، هي نصـف الحـروف الحلقية ، كما أن فيها نصف الحروف غير الحلقية .

---

(١) الظاهرة القرآنية ـ ترجمة دكتور عبد الصبور شاهين ـ طبعة ثالثة ـ ص ٣٣٢،٣٣٣.

وفيها نصف الحروف الشديدة ، كما أن فيها نصف الحروف الرخوة ، وفيها حرفان من الأحرف الأربعة المطبقة ، كما أن فيها نصف الحروف الأخرى المنفتحة غير المطبقة .

وفيها نصف الحروف المستعلية ، كما أن فيها نصف الحروف المنخفضة »[1].

فهل هذه الدقة الرائعة ، والتوزيع السحري بين جمل الحروف وأنصافها يمكن أن يعزى إلى ذات مريضة ، أو أعصاب مضطربة ؟! .

هذا ما يرفضه العقل والواقع معًا ، ولا يمكن أن يُعزَى مثله إلا إلى الوحي .

١٠- وذهب قطرب والفرَّاء إلى أن هذه الحروف إشارة إلى حروف الهجاء لا تتعداها ، أعلم الله بها العرب حين تحدَّاهم بالقرآن أنه مؤتلف من حروف هي التي منها بناء كلامهم ، ليكون عجزهم عن محاكاته أبلغ في الحُجَّة عليهم ، إذ لم يخرج عن طريقة كلامهم في أصل التأليف[2].

هذا عرض سريع لأهم الآراء في توجيه هذه الظاهرة ، وليست كلها مقبولة ، وقد ناقشنا فيما مضى رأيين منها ورددناهما ، وهما ما ورد عن طنطاوي جوهري ، وما نقله صاحب الظاهرة القرآنية .

أما الآراء الأخرى فيمكن النظر فيها على الوجه الآتي :

● نقد وتحليل :

أولاً : إنَّ القول بأنها أسماء الله أو للسور التي هي فيها مردود لاعتبارات :

أما كونها أسماء لله .. فإن أسماء الله معلومة من السُّنَّة كما في الحديث الشريف : « إنَّ لله تسعة وتسعين اسمًا » ، وكانت السُّنَّة مقررة لما جاء في

---

(١) الإعجاز البياني للقرآن ـ دكتورة عائشة عبد الرحمن ، ص ١٢٧ ، ١٢٨ .
(٢) انظر تفسير القرطبي : ١٣٤/١ ـ ط . دار الشعب .

القرآن الكريم وليست هذه منها ؛ لأن أسماء الله توقيفية ، لا يجوز إطلاقها إلا بإذن من الشرع ، وهذه اجتهادات مفسرين .

أما كونها أسماء للسور .. فإنَّ ذلك يؤدي إلى الخلط بين المسميات فـ ﴿ الٓمٓ ﴾ مثلاً وردت فواتح لست سور[1] . فأيها ألف لام ميم ؟ أم هي أسماء للست في آن واحد ؟!

وهذه السور قد أطلق عليها العلماء أسماءها لاعتبارات مناسبة كالبقرة .. ، وآل عمران .. إلخ . من هذا ترى أن كلا الاحتمالين ـ أسماء لله ، أو للسور ـ مردود .

أما القول باعتبار القيم العددية لهذه الحروف ، فرأي يبدو عليه الجفاف ، وقد صح النهي عنه كما أشرنا مثلاً إلى قول ابن عباس فيه ، وقد صح مثله عن القاضي أبي بكر في فوائد رحلته ، حيث جاء في الإتقان للسيوطي : ومن الباطل علم الحروف المقطعة في أوائل السور[2] .

« والذي أقوله : إنه لولا أن العرب كانوا يعرفون لها مدلولاً متداولاً بينهم لكانوا أول مَن أنكر ذلك على النبي ﷺ ، بل تلا عليهم ﴿ حمٓ ﴾ و ﴿ صٓ ﴾ وغيرهما فلم ينكروا ذلك ، بل صرَّحوا بالتسليم له في البلاغة والفصاحة مع تشوقهم إلى عثرة ، وحرصهم على زَلَّة ، فدل على أنه كان أمرًا معروفًا بينهم لا إنكار فيه .

ومما يضعف هذا الرأي أن منشأه جماعة من اليهود ، ظنوا الأمر كذلك حين سمعوا القرآن ، ثم لم يلبثوا أن تبينوا خطأ ظنهم[3] .

كذلك ـ فإنَّ القول بأنها رموز لكثرة ورودها في السور التي هي فيها أكثر من غيرها من الحروف الأخرى ، لا عمق فيه ، وما يمكن أن يُثار حوله من

---

(١) وهي : البقرة ، آل عمران ، العنكبوت ، الروم ، لقمان ، السجدة .

(٢) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ٢/١١ .

(٣) جاءت هذه القصة كاملة في الإتقان : ٢/١٠ .

نقد ، ما هي القيمة البيانية لهذه الإشارات ؟! وهل هذا القول لائق بجلال القرآن وعلو منزلته ؟؟

• أرجح الآراء في هذا المجال :

وبعد هذه المناقشة السريعة يبدو واضحًا أن أرجح هذه الاتجاهات على الإطلاق ما ذهب إليه قطرب والفرَّاء من أن تلك الحروف علامات دالة ورموز منصوبة فحواها أنَّ هذا القرآن الذي أعجز العرب أمره ، وبان لهم وجه التحدي فيه ليس بلغة غير لغتهم بل هو مؤتلف من مادة اللغة التي يحذقونها، ويجيدون التباري فيها ، ولهم تفنن في أساليب وطرق تعبيرها ، إذ لو كان بغير لغتهم لما صح به التحدي ولكان لهم عذر في الإعجاز من أوسع طريق ، وأغنى مورد .

ويرجِّح هذا الرأي أمور :

١- أن ستًّا وعشرين سورة مما فواتحه حروف مقطعة مكية النزول ، والعلَّة أن مظاهر العناد والتحدي للدعوة الجديدة في مكة قد بلغ نهايته فناسب ذلك أن يورد القرآن كثيرًا من النماذج التي تؤيد صحة الدعوة ، وتؤكد نسبتها إلى الله تعالى :

٢- أنَّ معظم هذه السور فيها حديث ـ بعد الفواتح مباشرة ـ عن سمو القرآن وعلو طبقته : ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (البقرة:٢) ، و﴿ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ ﴾ (هود:١) ... إلى آخر هذه الآيات والمطالع .

وقد تنبه العلماء قديمًا إلى هذه الظاهرة ، فنص عليها الرازي[١] ، والزركشي[٢] وغيرهما .

---

(١) التفسير الكبير للرازي : ٦/٦٤٤ .

(٢) البرهان في علوم القرآن للزركشي : ١/١٧٠ .

قال الزركشي : «واعلم أنَّ عادة القرآن العظيم في ذكر هذه الحروف أن يذكر بعدها ما يتعلق بالقرآن .. وقد جاء بخلاف ذلك في العنكبوت والروم فيُسأل عن حكمة ذلك»[1] .

والمشكلة تتصور في العرض الآتي : فقد حرص القرآن الكريم في كل سورة بدئت بالحروف المقطعة أن يذكر معها ما يتعلق بالقرآن . وتخلف هذا المنهج في ثلاث سور هي : مريم ـ العنكبوت ـ الروم . فقد جاءت مطالعها هكذا :

﴿ كٓهيعٓصٓ ۝١ ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ عَبۡدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴾ (مريم: ٢،١) .

﴿ الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ﴾

(العنكبوت: ٢،١) .

﴿ الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴾ (الروم: ٢،١) .

والحق أنَّ المتتبع لهذه السور الثلاث يجد في غضونها ذكرًا وحديثًا عن القرآن ، أو الانتصار للقرآن كما يقول الحافظ ابن كثير[2] .

ففي مريم تكرر قوله تعالى خطابًا للنبي عليه السلام : ﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ ﴾ خمس مرات [الآيات : ١٦، ٤١، ٥١، ٥٤، ٥٦] .

ثم تأتي في نهاية السورة هذه الآية : ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلۡمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوۡمٗا لُّدّٗا ﴾ (مريم:٩٧) .

وكذلك الحال في سورة العنكبوت فقد وردت فيها الآيات الآتية :

﴿ ٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ ﴾ (العنكبوت:٤٥).

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ ﴾ (العنكبوت:٤٧).

---

(١) البرهان في علوم القرآن للزركشي ١/١٧٠ .

(٢) تفسير ابن كثير : ١/٨٨ .

obeikan.com

﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ (العنكبوت:٤٨).

﴿ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ﴾ (العنكبوت:٤٩) .

﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ﴾ (العنكبوت:٥١) .

وجاء ـ كذلك ـ في سورة الروم : ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴾ (الروم:٥٨) .

وبهذا يمكن أن نخرج بما يأتي :

أولاً : أنَّ كل سورة بدئت بالحروف المقطعة ، فيها حديث مباشر عن روعة القرآن الكريم وإعجازه .

ثانيًا : إذا لم يكن ذلك الحديث مباشراً ، فإنه يأتي في غضون السورة مبينًا فضل القرآن وأثره ، ومنتصراً له على سواه ، ولذلك يطرد هذا الملحظ في التسع والعشرين سورة التي جاءت فواتحها حروفًا مقطعة .

٣- أنَّ هذا الرأي أبعد ما يكون عن النقد فضلاً عن لياقته بجلال القرآن . ووجوه الإعجاز البياني فيه .

٤- أنَّ الزمخشري ـ وهو خبير بنقد الأساليب وجهات الجمال والقبح فيها ـ يُرجِّح هذا الرأي ويقويه ، ويورد في ذلك كلامًا حسنًا . إذ يرى أنَّ مجموع الحروف التي بدئت بها هذه السورة يبلغ أربعة عشر حرفًا ، وهي نصف حروف المعجم ، كما تحتوي هذه الحروف على لطيفة أخرى ، هي أنها تشتمل على أنصاف أنواع الحروف : المهجورة ... والمهموسة ، والشديدة ، والمستعلية ..

ويعلق على هذا فيقول : « فسبحان الذي دقت في كل شيء حكمته وهو المطابق للطائف التنزيل واختصاراته فكأن الله ـ عَزَّ اسمه ـ عدَّد على العرب

الألفاظ التي منها تركيب الكلام . إشارة إلى ما ذكرت من التبكيت لهم وإلزام الحُجَّة إياهم »[1] .

ويقول أيضًا : « وهذا القول من الخلاقة والقبول بمكان »[2] .

٥- ولعل مما يقوي هذا الرأي أنه يلتقي مع غيره من الآراء ، إذ لا مانع أن تؤدي هذه الحروف ـ بالإضافة إلى معنى التحدي ـ معنى آخر مما ذكروه كالتنغيم الصوتي والدلالة على ورودها أكثر من غيرها .

- **تمثيل وإيضاح :**

هذه خلاصة ما قيل في هذا الأصل من الفواتح .. وخلاصة ما أراه فيها كذلك ، ومثله عندي كمثل صانع ماهر ، أعدَّ مواد مما يراه الصانعون ويألفونه ويعدون منه أشكالاً متفاوتة في الجودة والحسن كل حسب ما أُوتِيَ من مهارة وحذق في الصناعة ، فجاء هذا الصانع الذي ليس له نظير في الإبداع فطرح مواده التي أعدَّها أمام الصانعين وصنع منها شكلاً يحسونه في هيئته ونظامه ودقته أروع أمثلة جمال الفن مما ليس لهم قُدرة على الإتيان بمثله مع علمهم بأن مواده المصنوع منها طوع يد الجميع ، فالحذق والمهارة إنما هما في الصنعة لا في المواد المستعملة فيها ، إنَّ هذا أدعى إلى إقرارهم بالتفوق لهذا الصانع وأنه ليس من طبقتهم وإن اتحد العمل عند الجميع .. « ولله المثل الأعلى ».

- **المجموعة الشرطية :**

جاء الشرط فاتحة لسبع سور ، هي : « المنافقون ، الواقعة ، التكوير ، الانفطار ، الانشقاق ، الزلزلة ، النصر » . هذه السور السبع يمكن أن نصطلح على تسميتها : المجموعة الشرطية ـ أو القسم الشرطي من سور القرآن الكريم ـ والباحث يرى أنها تشترك في عدة خصائص .

---

(١) تقسير الكشاف للزمخشري : ٢١/١ .

(٢) المرجع السابق ٢٢/١ .

● **خصائص المجموعة الشرطية :**

أولاً : أن الطابع الغالب عليها أنها مكية النـزول ، مـا عـدا «الزلزلـة» فهـي مدنية باتفاق ، وما عدا «النصر» ففيها رأيان ، مكية باعتبار المكان لنزولها بعـد الهجرة ، وما عدا «المنافقين» فمدنية باتفاق .

ثانيًا : أن في معظم هذه السور حديثًا عن القيامة ومقدماتها ، مـع مـا اقـترن به الحديث عنها من أغراض أخرى لها بالمقام نسب ورحم .

ثالثًا : أن الشرط فيها قد تردد كثيرًا في السورة الواحدة ، ولم يقتصـر وروده على مطلع السورة فحسب وذلك أمر ظاهر من مجرد تلاوة هذه السـور السـبع وتتبع أساليب التعبير فيها .

رابعًـا : أن هـذه السـور السـبع ـ المجموعـة الشـرطية أو القسـم الشـرطي ـ موضـوعاتها أمـور مسـتقبَلة في الغالـب ، اسـتقبالاً حقيقيًّـا كمـا سـيحدث مـن مقدمات القيامة وأهوال الحشر ، أو استقبالاً باعتبار الحكاية كمجـيء نصـر الله في مطلع سورة «النصر» ، إلا ما دعا إليه المقام من الأغراض الأخرى كتقريـر أمر واقع ، أو لمحة من أخبار تكمل بها الصورة ويتضح بها المقام .

خامسًا : أن الحديث فيها إذا كان عن مشهد من مشاهد القيامة ، أو عن أمر يتكرر من مظاهر الطبيعة وسُنَّة الله في الكون ، أو عـن مصـير عـام محتـوم ، أو ما قارب هذه الأمـور فـالأداة المفضـلة هـي «إذَا» المؤذنـة بتحقيـق شـرطها وجوابها ، وإن لم يكن الحديث عن هذه الأمور بل غيرها ؛ فالأداة غيرهـا «إن» أو «لو» وما شابه ذلك .

والقيمة البيانية لهذا المطلع الشرطي التي من أجلها ـ والله أعلم ـ آثر القـرآن افتتاح هذه السور بها ، هي أن الأسلوب الشرطي يمتاز بربطه بين أجـزاء الكـلام ربطًا ملاحَظًا فيه ترتب المسبب على السبب ، فإذا ذُكِـرت أداة الشـرط وأردفـت بفعل الشرط تشوقت النفس إلى ذكر ما سيكون .. فإذا ذُكِـر الجـواب بعـد هـذه الإثارة وهذا التشويق تمكن أيما تمكن ، والـذي يزيـد مـن هـذه القيمـة البيانيـة لأسلوب الشرط في القرآن الكريم أمران :

الأول : أن القرآن في غالب الفواتح من هذا النوع لا يكتفي بفعل شرط واحد ـ كما هو الحال في غيره ـ بل يقرن به أشباهًا ونظائر يطول تأمل السامع فيها وتضاعف من تشوقه إلى الجواب كلما انتقل من جزء إلى جزء ، فيأتيه الجواب بعد تلهف وطول ترقب .

الثاني : أن أجزاء الأسلوب الشرطي في القرآن ليست من جنس ما يستعمله الناس من أمور عادية قد لا يهتم بها إنسان ، أو ليس للوقوف عنده على مدلولاتها كبير معنى .

أو ربما تنبأ ـ سَلَفًا ـ بما سيكون عليه الحال فلا يفيد منها فائدة جديدة .

وليس الحال كذلك في القرآن ، بل فيه ـ فوق دقة النظم وجمال التركيب ـ غرابة وجزالة ، ولنأخذ لذلك ـ مثلاً ـ سورة التكوير :

﴿ إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝٤ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝٧ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ۝٩ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ۝١٠ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ۝١١ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ۝١٢ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ۝١٣ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ۝١٤ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ۝١٥ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ۝١٦ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ۝١٧ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ۝١٨ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝١٩ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ۝٢٠ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ۝٢١ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴾ (التكوير: ١-٢٢).

لنتل هذه السورة حق التلاوة ، ولنتأمل الشرط الذي بدئت به ، ولننظر إلى الأشباه والنظائر التي عطفت عليه ، ولتستحضر معاني هذه الصور التي ترمز إليها كل وحدة من وحدات الشرط وأشباهه ونظائره ، ولنحاول تأملها كأنها واقعة ـ الآن بالفعل ـ ولندرك كم من المراحل سبحنا فيها ، وكم من المشاهد تجددت أمامنا كل مشهد غريب غريب في هيئته وصورته رهيب رهيب في حدوثه وظهوره ، يعلو ويسفل .. مرة في السماء وأخرى على الأرض ، إنها

رحلة طويلة شاقة تقطعها النفس حتى تقف على حقيقة الرحلة والغاية التي من أجلها شُدَّت الرحال : ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴾ (التكوير:١٤) [1] .

هنا تستريح النفس من عناء رحلة بهرت الأنفاس ، ولكنها استراحة « ليست بالطويلة » فهي على موعد مع رحلة طويلة أخرى تبتدئها من هنا ، رحلة من رحلات الكون ليس المقطوع فيها مسافة أرض بل وحدات زمن وتجدد ظواهر :

﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ۝١٥ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ۝١٦ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ۝١٧ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ۝١٨ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝١٩ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴾

(التكوير:١٥-٢٠) .

هاتان رحلتان ، أولاهما أطول من الثانية ، وبين الرحلتين نسب وثيق وعرى محكمة .

فالسورة كلها مسوقة لبيان وتقرير حقيقتين كبيرتين . وهما :

أولاً : وقوف الإنسان على حقيقة أمره يوم القيامة .

ثانيًا : وصف القرآن بما هو حقيقه به من أوصاف الكمال ، وكل من هاتين الحقيقتين ذُكِرَ معها ما يمهد لها ويناسبها .

ففي جانب الحقيقة الأولى أُديت المعاني المقصودة منها بشرط ﴿ إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾ ، ثم تتابعة نظائره وأشباهه حتى بلغت اثنتى عشرة صورة من صور البعث ، وبلغت الوحدات في هذا الجزء من السورة أربع عشرة وحدة محسوبًا في ذلك جواب الشرط ، والوحدة اللاحقة بالحديث عن الموءودة . وكل هذه الصور من مشاهد القيامة وأهوالها ، وكلها آيات دالة على قُدرة الله الفائقة .

---

(١) تأمل تنكير « نفس » وتذوَّق ما توحي به العبارة من جلال الموقف وخطره .

● **سر الحروف الساكنة :**

وانتهت فواصل الآيات بالتاء الساكنة ، وهي من الحروف المهموسة ، وتساوت الوحدات الصوتية فصارت كالأنغام الموسيقية سريعة الحركة لاهثة الإيقاع تشترك بتصويرها الصوتي في تجسيم المشهد وتمثيله للخيال .

ولعل السر في ختم هذه الفواصل بالتاء الساكنة الهامسة الإشارة إلى انقضاء حركة الحياة الأولى في الكون ، والإيذان بسيطرة الخوف والدهشة على النفوس والوجوم الذي يغشى الناس ... وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همسًا .

وداعي هذا الخوف المسيطر على النفوس ، أوضاع الكون الغريبة التي صار إليها .. وليس في النفوس البَشرية استعداد لتحملها في وعي وإدراك .

والإنسان يومئذ سيرى حقيقة عمله ويقف على نوع مصيره : ﴿ **عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ** ﴾ (التكوير:١٤) ، والنفوس عندما تصل إلى هذا الموقف تتهيأ لامتثال الأوامر ، وتتطلع إلى حسن التوجيه وتهفو إلى الإرشاد المنجي من هذه الويلات .

● **حقيقة كبرى :**

لهذا ـ والله أعلم ـ يعقب القرآن هذا المشهد المثير المخيف بعرض حقيقة كبرى من حقائق الإيمان .

وهو لا يكتفي بتهيئ النفوس الذي شرحناه آنفًا ، بل يمهد لهذه الحقيقة الثانية بذكر آيات الله في الكون من كواكب خُنَّس كُنَّس ، تسير في فلكها بنظام دقيق ، ومن ليل يقبل بظلامه فيسكن كل متحرك ، ويختفي كل ظاهر ، وصبح ترسل أشعته هادية باصرة فيتحرك كل ساكن ويظهر كل مختف ... إنه بعث ، إنه حياة .

بعد هذا كله يعرض القرآن حقيقة الإيمان الكبرى : القرآن كتاب الله ووحي أوحاه : ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴾ [1] .

● **معان إضافية موحية :**

هذا وصف حقيق به القرآن .. وقد تضمن هذا الجزء معاني إضافية بالنسبة إلى الهدف الرئيسي من الكلام عن القرآن ، ولكن حين ننظر إلى هذه المعاني الإضافية نجد لها أروع الدلالة على تأكيد المعنى الرئيسي .. وهو وصف القرآن بأنه وحي الله إلى رسوله .

وتلك المعاني الإضافية هي :

أولاً : وصف جبريل عليه السلام ـ وهو سفير الوحي ـ بما ينبئ عن كرمه عنده ... ونباهة شأنه فقال : ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ۝١٩ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ۝٢٠ مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ ﴾ (التكوير:١٩-٢١) وقد جاء ضمن هذه الأوصاف وصفه بالأمانة ، هذا الوصف هام حيث إن جبريل أحد مصادر القرآن ، إذ يُشعِر ذلك بصيانة القرآن من التحريف ، فجبريل مبلِّغ له كما تلقاه من ربه لم يُغيِّر أو يبدل فيه لأنه أمين .

ثانيًا : وصف محمد ﷺ وهو المتلقي للقرآن عن جبريل كما أمره ربه ، ثم المبلِّغ به الناس بصفة الرشد والسلامة من الآفات التي تنقص من قدر أصحاب الرسالات وعلى رأسها الجنون : ﴿ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجۡنُونٖ ﴾ (التكوير:٢٢) ، وهذا الوصف هام أيضًا ينبئ أنَّ محمدًا عليه السلام قد بلَّغنا القرآن كما أنزله ربه ، لم يخلط فيه ، ولم يلتبس عليه منه شيء لأنه عاقل رشيد ، والجنون المنفي عنه هو مظنة الخلط والإلباس ، وقد عدل عن اسمه الصريح إلى ﴿ صَاحِبُكُم ﴾ لأن في هذا التعبير إشعارًا بإلزامهم بالحُجَّة إذ هو ملازم لهم

---

(١) المفسرون على أن المراد بالرسول الكريم هنا هو : جبريل عليه السلام . انظر : تفسير الكشاف للزمخشري : ٥٦٨/٤ . وإرشاد العقل السليم لأبي السعود : جـ ٤ . وأسرار التنزيل للنسفي : جـ ٤ .

وهم يعرفون تمامًا رجاحة عقله وحدة ذكائه وكريم سيرته ، ألم يسموه قبلاً : الصادق الأمين .

وبهذين الوصفين ، وصف جبريل بأنه أمين ، ووصف محمد عليه السلام بالرشد ونفي الجنون عنه سلم مصدران من مصادر القرآن من أي عيب يكون مظنة التحريف والتبديل ، وسلم القرآن نفسه من كل عيب يتقوله المتقولون عليه .

ثالثًا : إنَّ فعل القَسَم ﴿ **فَلَآ أُقۡسِمُ** ﴾ صدر بحرف النفي ، ثم ذكر المقسَم به وهو عدة مظاهر كونية : كواكب خُنَّس كُنَّس ، وليل عسعس ، وصبح تنَّفس ، ثم ذكر المقسَم عليه ، وهو كون القرآن وحيًا من عند الله نزل به أكرم مَلَك على أشرف رسول ، فلماذا نفى القسم إذن والحقيقة المراد إثباتها جديرة بأن يُقسَم عليها لأن كثيرًا من المعاندين حاولوا التشكيك فيها ؟ لقد حاول كثير من العلماء أن يُخَرِّجوا العبارة على إثبات القسم .

وليس من ضير أن نُبقي القَسَم منفيًّا على ظاهره وسره البياني حينئذ أنَّ الحقيقة ظاهرة لا تحتاج إلى أن يُقسَم على إثباتها إجراء لإنكار المعاندين كلا إنكار ، لأنه لم يصادف موضعًا يتوجه إليه على وجه مقبول ، ويكون فائدة ذكر القَسَم منفيًّا للإشارة إلى أن هذه النكتة توصلاً لذِكر المقسَم به في الظاهر باعتبار أنها آيات ناطقات .

رابعًا : إنَّ قوله تعالى : ﴿ **إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ** ﴾ (التكوير:١٩)، وفي قوله : ﴿ **وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ** ﴾ (التكوير:١٨) وهذا نمط بياني بالغ الدقة فكأن الله يريد أن يقول : القرآن في هدايته للناس كالصبح في إشراقة وبث الحياة في الكائنات بعد سكون وظلام ..

خامسًا : إنَّ فواصل الرحلة الثانية ، تنتهي بحرف السين المتحرك ، وهو من أحرف التصغير ، والتصغير حركة دائبة مستمرة ، والكلمات في أنفسها حركة عنيفة يحتاج عضو النطق إلى مجهود في تأديتها بخلاف فواصل الرحلة الأولى

المنتهية بحروف ساكنة ، ولعل الفرق بين الحالتين واضح ، فقد علمنا السر هناك ، أما في هذه المجموعة القسمية فإنَّ المخاطَبين فيها ليسوا على مشارف البعث وأهوال القيامة وإنما هم في فسحة من الأمل في الحياة بطولها وعرضها وحركتها وصخبها لذلك جاءت الكلمات متموجة مدوية والفواصل متحركة سافرة .

وهذا هو صنيع القرآن : لكل جملة بل لكل كلمة بل لكل حرف وحركة مكان ودلالة ، ولكل مقام مقال .

وهاتان الحقيقتان اللتان دار عليهما رأس الأمر في السورة كلها ـ مع توابعهما ـ أديتا في عبارتين جزلتين : شرط ، وقَسَم .

● **مطالع سور المجموعة الشرطية :**

وهذا ما يمكن ملاحظته في سورة التكوير ، وما يمكن ملاحظته في بقية هذه المجموعة الشرطية ، وقد ألمعنا إليها ، أنَّ القرآن تحدث فيها عن مظاهر القيامة ، فكان أسلوب الشرط هو وسيلته المفضلة والأداة هي « إذا» المؤذنة بتحقيق جوابها ، لأن الساعة آتية لا ريب فيها ، ومظاهر القيامة موضع اهتمام فيها لأنها صُدِّرت بها وعليها أدار الحديث .

فمن ذلك مطلع سورة الواقعة : ﴿ **إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝٣ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ۝٤ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝٥ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ۝٦ وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَٰثَةً** ﴾ (الواقعة: ١-٧) .

ومطلع سورة الانفطار : ﴿ **إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ۝٤ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ** ﴾ (الانفطار: ١-٥).

ومطلع الانشقاق : ﴿ **إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝١ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ۝٣ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ۝٤ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ** ﴾

(الانشقاق: ١-٥) .

وسورة الزلزلة : ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ۝٣ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴾ (الزلزلة: ١-٥) .

● **سر « إذا» :**

في مطالع هذه السور يتحدث القرآن عن مشاهد القيامة ، فلم يستخدم من أدوات الشرط غير « إذا» وقد تقدم وجهه في حديثنا عن سورة التكوير ، وفواصلها منتهية بالتاء الساكنة مثل فواصل سورة التكوير ، وهذا يؤيد ملاحظتنا التي أشرنا إليها هناك ، ولا تظن أنَّ سورة « الزلزلة» خرجت عن هذا النظام ، فإننا نلحظه في غير الفواصل في موضعين : « زلزلت» و« أخرجت» ، أما فواصلها فلا يخفى أنها منتهية بالألف الساكنة .

والحال كذلك ـ أعني استخدام الأداة « إذا» ـ إذا كان الحديث عن منظر متكرر من مناظر الطبيعة ومثاله : ﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ۝١٧ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ (التكوير:١٧،١٨)، ومثله : ﴿ وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴾ (الانشقاق:١٨).

وكذلك الحال إذا كان الحديث عن مصير محتوم ، سواء أكانت حتميته لسنن خاص أو عام ، ومثال الأول : ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ ﴾ (النصر:١) لأن مجيء النصر أمر محتوم لأنه وعد الله لرسوله ، والله لا يخلف الميعاد .

ومثال الثاني : ﴿ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ﴾ (المنافقون:١١) لأن مجيء الأجل أمر محتوم كذلك لأنه سُنَّة الله في الخلق لا فرق بين كائن وكائن ، فالأمر هنا يجري على سنن عام .

● **إيثار غير « إذا» :**

وإذا خرج الحديث عن هذه المواقف وأشباهها فإن المجال فسيح أمام أدوات الشرط غير « إذا» كل حسب ما يقتضيه المقام .

ومن ذلك قوله في سورة الواقعة : ﴿ لَوۡ نَشَآءُ لَجَعَلۡنَٰهُ حُطَٰمٗا فَظَلۡتُمۡ تَفَكَّهُونَ ﴾ (الواقعة:٦٥) وقوله : ﴿ لَوۡ نَشَآءُ جَعَلۡنَٰهُ أُجَاجٗا فَلَوۡلَا تَشۡكُرُونَ ﴾ (الواقعة:٧٠) .

ومثله من سورة المنافقين : ﴿ لَئِن رَّجَعۡنَآ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ لَيُخۡرِجَنَّ ٱلۡأَعَزُّ مِنۡهَا ٱلۡأَذَلَّۚ وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ (المنافقون:٨) .

اختلفت الأداة في هذه النصوص لاختلاف الأغراض إذ المراد من الأول التهديد بتبديل النِّعَم وذلك أمر متوقف على المشيئة الإلهية إذا أرادته كان وإلا فلا .

والمراد من الثاني : ﴿ لَئِن رَّجَعۡنَآ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ ﴾ حكاية حال للمنافقين وهم غير ضامني رجوعهم إلى المدينة وذلك ـ في تصورهم ـ لو حدث لترتب عليه ما دبروه من آثار .

والتفرقة بين أدوات الشرط على هذا الأساس ليست خاصة بمجموعة السور الشرطية بل عامة في جميع سور القرآن ، ولا يخالف إلا لداع بلاغي ، وإنما آثرنا الحديث عما جاء منه في هذه المجموعة لأن المجال خاص بها .

- **ظاهرتان عامتان :**

والذي أريد إثباته ـ هنا ـ أن مجموعة كل نوع تحكمها ظاهرتان :

الأولى : أنَّ كل مجموعة من هذه السور انتظمت تحت أصل واحد من هذه الأصول العشرة بينها مناسبات وخصائص كانت سببًا في أن تكوِّن هذه المجموعة جدولاً متميزًا يتقدمه مطلع واحد متحد السمات أو متقاربها ، بحيث يتضح عند التأمل أن انتظامها تحت ذلك الأصل لم يكن محض صدفة ، بل هو تدبير حكيم ، وصنع خبير .

الثانية : أن تلك الأصول ـ في جملتها ـ ضرب من البيان رفيع ، ونمط من التعبير معجز ، ولون من البلاغة فريد ، إذ هي آنق ، وأنسب الكلام مطالع ،

وأجزلها وأعذبها ألفاظًا ، وأشرفها وأنبلها مقاصد ، وأحسنها وأجودها سبكًا، وأدقها وأروعها نظمًا .

ومطالع الكلام هي أول ما يقرع السمع ويصل إلى النفس ، فإذا توافرت لها خصائص التعبير الجميل خفت النفس لسماعه ، وأقبلت على فهم معناه ، وانتهاج نهجه وصارت معه حيث يكون .

وقد جاءت هذه الفواتح كلها وافية بهذا الغرض عامرة بتلك الخصائص وهو أمر شهد به أرباب القول وحُذَّاق الكلام حتى من أعداء القرآن أنفسهم ، والحق ما شهدت به الأعداء .

والآن .. فقد بان لنا أن كلتا المجموعتين ـ ما بدئت بحروف الهجاء ، وما بدئت بأساليب الشرط ـ لم يكن هذا السلوك في أي منهما أمرًا صنعته الصدفة ، بل كان لخصائص تعم أفراد المجموعة ، وتربط بينها فتجعلها قسمًا ذا ملامح خاصة ، وقد حاولت جهد ما أستطيع أن أكشف عن شيء من تلك الخصائص التي تسري بين وحدات كل مجموعة وكان مرجعي في ذلك هو القرآن نفسه .

وهذه براعة استهلال ، ذات دلالات بيانية تضاف إلى وجوه إعجازه وجمال أسلوبه وسحر بيانه .

٢- فواصل القرآن :

فاصلة الآية هي آخر كلمة فيها ، وللعلماء تعريفات متعددة في تحديد معنى الفاصلة فمرة يُعرِّفونها بأنها كلمة آخر الآية كقافية الشِّعر وقرينية السجع[١]، وقال الداني : هي كلمة آخر الجملة ، والفرق بين التعريفين واضح ، الأول يخص الفاصلة بآخر الآية وهو ما عليه العمل ، والثاني يعتبر الفاصلة كلمة آخر الجملة سواء أكانت هذه الجملة في أول الآية أو وسطها أو آخرها فهو غير مانع إذ تدخل فيه الفاصلة اللغوية مع الفاصلة الاصطلاحية وهذا عيب في التعريف .

---

(١) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي : ٢/٩٦ .

لذلك نقده الجعبري فقال : «وهذا خلاف المصطلح ولا دليل له في تمثيل سيبويه بـ ﴿ يَوْمَ يَأْتِ ﴾ (هود:١٠٥) و ﴿ مَا كُنَّا نَبْغِ ﴾ (الكهف:٦٤) . وليسا رأسي آية لأن مراده الفواصل اللغوية لا الصناعية»[١] .

وقال القاضي أبو بكر الباقلاني : «الفواصل حروف متشاكلة في المقاطع يقع بها إفهام المعنى ، ولعل عِلَّة التسمية «فاصلة» لأنها تفصل بين الآي ، وتميز بينها» .

• آراء العلماء حول السجع في القرآن :

وقد سموا التشاكل الواقع بين الحروف في أواخر الآي فواصل ، وسموا نظيره في الأساليب الأخرى سجعًا ؛ لأن مجيء السجع في القرآن لم يكن محل اتفاق بين العلماء ، فانقسموا إزاء هذه القضية قسمين :

الأول : يمنع أن يكون في القرآن سجع ، ولهم في ذلك حجج وأسباب ذكروها وبنوا مذهبهم عليها .

الثاني : يرى جواز مجيء السجع في القرآن ، بل هو وارد فيه فعلاً ، ولهم ردود على حجج وأساليب المانعين ، وأسباب أخرى مهَّدوا بها لمذهبهم .. وبنوا فكرتهم عليها .

ومن أدلة المانعين :

١- أن القرآن وصف لله ، فلا يجوز وصفه بما يرد به إذن شرعًا .

٢- أن السجع من قولهم : «سجع الطير» وشرف القرآن ألا يُستعار لشيء فيه لفظ أصله مهمل .

٣- أن السجع يُقصد ثم يُحال المعنى عليه وفي هذا ضرب من التكلف ، أما الفاصلة فيُقصد بها المعنى أولاً ، ثم يُحال عليه اللفظ ، فالسجع عيب والفواصل بلاغة .

---

(١) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي : ٩٣/٢ .

٤- لو كان في القرآن سجع لما كان خارجًا عن أساليب كلامهم ، ولو كان كذلك لما كان فيه إعجاز ولو كان جاز أن يقال : إنه سجع معجز لجاز أن يقال : إنه شِعر معجز ، وكيف والسجع مما كانت تألفه الكهان من العرب ، ونفيه عن القرآن أجدر أن يكون حُجَّة من نفي الشِّعر ؛ لأن الكهانة تنافي النبوَّات ، وليس كذلك الشعر .

٥- ولو سلَّمنا بأن في القرآن سجعًا لكان مذمومًا في بعض المواضع لمجيئه على غير شرط السجع الحسن ، وهو ما كان متقارب الحروف ، ولعدم استواء مقاطعه في الطول ـ أحيانًا ـ وهذا غير مُرْضٍ ، ولا محمود ، لأن للسجع منهجًا ملحوظًا وطريقًا مضبوطًا مَن أخلَّ به وقع الخلل في كلامه[١] .

وهذه خلاصة أدلة المانعين وكان أولهم الأشاعرة ، ثم تابعهم كثير من العلماء مثل ابن خدلون والرماني والباقلاني .. وغيرهم .

يقول ابن خلدون : « ... أما القرآن ـ وإن كان من النثر ـ إلا أنه خارج عن الوصفين ليس يسمى مرسلاً مطلقًا ولا مُسْجعًا ، بل تفصيل آيات ينتهي إلى مقاطع يشهد الذوق بانتهاء الكلام عندها ، ثم يُعاد الكلام في الآية الأخرى بعدها ، ويثنى من غير التزام حروف تكون سجعًا ولا قافية ، ويسمى آخر الآيات منها فواصل إذ هي ليست أسجاعًا ، ولا التزم فيها ما التزم في السجع ، ولا هي قوافي أيضًا[٢] .

ويبدو أن ابن خلدون أول مَن أطلق هذه التسمية وقد طرق في نصه هذا أهم قضايا هذه الفكرة وكان موفقا أيما توفيق حيث اشتق تسمية : « الفاصلة » من استعمال القرآن نفسه لهذه المادة في حديثه عن القرآن اسمًا وفعلاً .. ولذلك فإن هذه التسمية ليست بغريبة عن روح القرآن ولغته .

---

(١) ردد هذه الشُّبه القاضي أبو بكر الباقلاني في كتابه « إعجاز القرآن » .

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ٦٦٢ .

أما المجيزون لورود السجع في القرآن ، فكثيرون كذلك ، منهم أبو هلال العسكري وضياء الدين ابن الأثير ، والعلوي صاحب الطراز وابن سنان الخفاجي ، والفرَّاء من النحاة والزركشي صاحب «البرهان» والسعد وابن النفيس .. وغيرهم .

وكان على هؤلاء أن يقوموا بعملين لإثبات مذهبهم ..

أولاً : الرد على شُبه المانعين ، وأقوى أدلتهم ـ فيما نرى ـ أنَّ السجع من المحسنات اللفظية ، والفواصل من المحسنات المعنوية ، وبين النوعين بون شاسع .

ثانيًا : أن يأتوا بجديد من الأدلة التي تؤيد وجهتهم فضلاً عن رد شُبه المانعين ، وهذا هو الذي فعلوه فلننظر في أقوالهم .

يقول ابن الأثير : «.. وإلا لو كان مذمومًا ـ يعني السجع ـ لما ورد في القرآن الكريم ، فإنه قد أتى منه بالكثير حتى إنه ليؤتى بالسورة كلها مسجوعة ، كسورتي الرحمن والقمر ، وغيرهما .. وبالجملة فلم تخل منه سورة من السور»[1] .

ويقول أبو هلال العسكري : «جميع ما في القرآن الكريم مما يجرى على التسجيع والازدواج مخالف في تمكين المعنى وصفاء اللفظ ، وتضمن الطلاوة والماء لما يجري مجراه من كلام الخلق»[2] .

وكذلك يقول صاحب «الطراز» ، وابن النفيس ، وهما إنما يدفعان ما ذكره المانعون من شُبه ولم يأتيا بجديد يؤيد هذه الوجهة ، أي أنهما يدوران في مجال العمل الأول فحسب .

وجاء ابن سنان الخفاجي فأتى بالعملين معًا ، رد شُبه المانعين ، وإثبات جديد من الأدلة ليس في وسع منصف إنكارها ، فكان أكثر النقَّاد حسمًا

---

(١) المثل السائر لابن الأثير ص ٧٤ .

(٢) سر الصناعتين أبو هلال العسكري ص ٢٤٩ .

للخلاف ، وأشدهم حماسًا لإثبات السجع في القرآن الكريم ، كان منهجه على النحو التالي :

١- بدأ بذكر مذاهب المانعين ، وذكر عبارة الرماني : « الفواصل بلاغة، والسجع عيب» ، وفنَّد أدلتهم واحدًا واحدًا .

٢- فرَّق بين الفواصل والأسجاع تفرقة فنية بأن الأسجاع حروف متماثلة في مقاطع الفصول أما الفواصل فمنها ما يكون متماثل الحروف ومنها ما يكون متقارب الحروف ، فالأول سجع والثاني فاصلة .

وكلا النوعين إما أن يأتي طبعًا سهلاً تابعًا لمعناه ، وإما أن يأتي على الضد ، فالأول محمود والثاني مذموم .

والقرآن الكريم ، ورد فيه النوعان : المتماثل الحروف ، والمتقارب ، وكلاهما فيه من المحمود ويمثل لذلك بمطالع السور : الطور ـ طه ـ العاديات ـ الفجر ـ القمر ـ ويعقب على ذلك بقوله : « وكل أولئك جائز أن يسمى سجعًا لأن فيه معنى السجع ولا مانع في الشرع يمنع ذلك»[1] ، ويمثل للمتقارب بأم الكتاب ، و« ق» ، ويقول : « مثل ذلك لا يسمى سجعًا لأن حروفه غير متماثلة» .

٣- خطَّأ الرماني في قوله : « الفواصل بلاغة والسجع عيب» لأنه إن أراد بالسجع ما يكون تابعًا للمعنى وكان غير مقصود ، فذلك بلاغة والفواصل مثله ، وإن كان يريد بالسجع ما تقع المعاني تابعة له ، وهو مقصود متكلف ، فذلك عيب والفواصل مثله .

٤- ويرد على شبهة تنزيه القرآن عما سواه فيقول : « وهذا غرض في التسمية قريب ، فأما الحقيقة فما ذكرناه لا فرق بين مشاركة بعض القرآن لغيره في

---

(١) سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي ص ١٩٤-١٩٧ .

كونه عرضًا وصوتًا وحروفًا وكلامًا عربيًّا ومؤلفًا ، وهذا مما لا يخفى فلا يحتاج إلى زيادة في البيان»[1].

ومما يؤيد به المجيزون مذهبهم فوق ما ذكر ، أن السجع من الفنون التي يبين بها فضل الكلام ويقع لها التفاضل في البيان والفصاحة ، كالجناس ، والالتفات ونحوهما من الفنون البلاغية التي هي محل اتفاق من حيث ورودها فيه ، فكما جاز ورود هذه الفنون فيه جاز ورود السجع .

● دليل السجع من القرآن نفسه :

ثم لجأوا إلى القرآن نفسه يستخرجون منه أمثلة تدعم فكرتهم ، منها أن القرآن ورد فيه تقديم موسى على هارون في موضع ، وفي آخر قُدِّمَ هارون على موسى[2] ، وموسى إذا قُدِّمَ على هارون فذلك جار على الأصل عندهم ، لأن موسى أفضل من هارون ، فإذا قُدِّمَ هارون على موسى ، وهو مفضول بالنسبة له فذلك عندهم ـ أي تقديم هارون على موسى ـ ليس إلا لفضيلة السجع ، لأن الفواصل فيه جارية على «الألف» .

ومنها : ﴿ **وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى** ﴾ (طه:١٢٩) حيث فصل بين المعطوف والمعطوف عليه من أجل السجع ، لأن تقدير الكلام : «ولولا كلمة سبقت من ربك وأجل مسمى لكان لزامًا» .

● رد هذا الدليل :

وقد رد الباقلاني على الشُّبهة الأولى ـ وهو من نُفاة السجع كما علمنا ـ فقال : «إن تقديم موسى على هارون مرة وتأخيره عنه أخرى ، ليس من أجل السجع ، وإنما هو إيراد للقصة الواحدة بألفاظ مختلفة تؤدي معنى واحدًا ، وهذا من الأمر الصعب الذي تظهر فيه البلاغة»[3].

---

(١) سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي ص ١٩٤-١٩٧ .

(٢) وورد ذلك في سورتي طه : ٧٠ ، والشعراء : ٤٨ .

(٣) إعجاز القرآن للباقلاني على هامش الإتقان ص ٩٣-٩٤ .

وهناك اعتباران ـ لم يفطن لهما الباقلاني ـ يؤيدان مذهبه وهما أن أفضيلة موسى على هارون ليست على الإطلاق ، لأن هارون يفضل موسى بفصاحة اللسان وكمال هيئة النطق وتقدمه في السن عليه ، إذ يكبره بثلاث سنوات كما جاء ذلك في العهد الجديد[1].

وكمال هيئة النطق وفصاحة البيان أمر له قيمته في مقام التبليغ ، وقد شهد به موسى نفسه كما حكى عنه القرآن : ﴿ **هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا** ﴾ (القصص:٣٤) ، فلا يبعد أن يكون تقديم هارون على موسى من أجل هذا الاعتبار .

هذا على اعتبار أن التقديم يجري في القرآن على حسب الأفضلية ، ولكن الواقع أن ليس كل تقديم في القرآن جاريًا على أن المقدَّم أفضل من المؤخر بل للتقديم فيه أسرار أخرى غير هذا ، فالأولى عدم التمسك بها والتماس وجه آخر ينطلق معه الفهم في آفاق رحبة .

أما الشُّبهة الأخرى فلم يتعرض لها الباقلاني ، وقد عثرتُ في كشاف الزمخشري على توجيه للآية يحسن بنا الإشارة إليه .

وتوجيه الزمخشري للآية ذو شقين :

الأول : أن يكون «أجل مسمى» معطوفًا على «كلمة» وعليه ففي الآية فصل بين المتعاطفين .

الثاني : أن يكون معطوفًا على الضمير في «لكان» وعليه فلا فصل في الآية ، وتقدير المعنى حينئذ : «ولولا كلمة سبقت من ربك لكان الأخذ العاجل والآجل لازمين لهما كما كانا لازمين لعاد وثمود» .

والوجه الثاني هو الذي يهمنا من أجل قضيتنا هذه لأنه لا يلزم عليه تقديم ولا تأخير فيسقط الاستدلال به .

---

(١) الكتاب المقدس ٧ : ٧ .

والمسألة بعد ـ في رأي الإنصاف ـ بين نفاة السجع ومجوزيه لا تعدو أن تكون خلافًا لفظيًّا ما دام الاثنان متفقين على تنزيه القرآن عن التكلف والتوعر والتقليد ، فلا ضَير أن يقال : إن في القرآن سجعًا لكنه فصيح غير متكلف كما يقول أبو هلال : « مخالف في تمكين المعنى وصفاء اللفظ وتضمن الطلاوة والماء لما يجرى مجراه من كلام المخلوقين » ولا سبيل إلى إنكار السجع ففيه منه القدر الكثير والاتفاق في التسمية لا يضير ما دامت التفرقة بينه وبين غيره مقيسة بمعايير الجودة والحسن وخلوه من العيوب التي ألفوها في غيره .

● **وظيفة الفواصل اللفظية :**

للفاصلة في القرآن الكريم وظيفتان ، إحداهما لفظية ـ وسنتحدث عنها الآن ، وأخرى معنوية ـ وسيأتي الحديث عنها قريبًا .

أما وظيفتها من حيث اللفظ فتعتمد على العوامل الآتية :

أولاً : أنها تحسين للكلام وراحة للنفس عند التلاوة ، حيث يحسن السكوت عليها وقد كمل المعنى أو قارب الكمال ، بحيث يشهد الذوق بذلك ويدركه.

ثانيًا : تؤذن بانتهاء الآية وتميز بينها وبين التي تليها كما تميز قافية الشِّعر بيتًا من بيت مع اختصاص الفاصلة بأحكام الربط ودقة النظم وجمال التلاؤم .

ثالثًا : تساعد الفاصلة على تلاوة القرآن مرتلاً مجوَّدًا بأنغام آسرة ذات إيقاع جميل .. « وهذا الجمال التوقيعي في القرآن لا يخفى على أحد »[1] .

ومن أجل هذه الوظيفة اختصت الفاصلة بأمور ، وهي :

(أ) ختمها ـ في الغالب ـ بحروف المد واللين ـ وإلحاق النون والميم بها ، وحكمته التمكن من التطريب ، قال سيبويه : « إنهم ـ أي العرب ـ إذا ترنموا يلحقون الألف والياء والنون يريدون مد الصوت ، ويتركون ذلك إذا لم يترنموا »[2] .

---

(١) النبأ العظيم ـ دكتور محمد عبد الله دراز .

(٢) الكتاب لسيبويه : ٢٩٨/٢ .

وقد جاء في القرآن على أسهل موقع ، وأعذب مقطع[1] .

(ب) أن الحروف التي تقع بها الفواصل إما متماثلة أو متقاربة ، ولا تخرج عنهما كما قال فخر الدين الرازي ، وبهذا استكملت أداة الغناء وتم لها حسن التناسق وجمال الإيقاع .

(جـ) أنها تتقدم عليها ألفاظ تُمهِّد لها ، وتُعظِّم من وقعها في السمع ، وتلك الألفاظ سماها المتقدمون رد الأعجاز على الصدور ، وسماها المتأخرون التصدير.

(د) أن تتكرر في بعض المواضع فاصلة بعينها كما في سور : الرحمن والقمر والمرسلات ، لكن هذا التكرار ليس مختصًّا بهذه الوظيفة الصوتية ، بل لها وللوظيفة المعنوية كما يبدو عند البحث والتأمل .

- **وظيفة الفواصل المعنوية :**

لابد للباحث عند الكشف عن وظيفة الفواصل من حيث المعنى أن يتتبع جميع فواصل الآي فيه حتى يتسنى له أن يحصل على نتائج وقوانين لهذه الوظيفة ، وهذا ليس له من سبيل في بحثنا هذا ، ولذا نكتفي بذكر ما يتيسر منها فيما يأتي :

قال تعالى : ﴿ **أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ** ﴾ (السجدة:٢٦،٢٧) .

والمعنى العام لهاتين الآيتين أن الناس غفلوا عن آيات الله ، وهي ظاهرة أمامهم يمرون عليها دون تذكر أو تدبر .

---

(١) بديع القرآن لابن المعتز ص ٩٣ .

وهذه الآيات التي غفلوا عنها نوعان : آيات تاريخية تُدرَك عن طريق السمع والرواية ، وأخرى حاضرة تُدرَك عن طريق الرؤية والبصر .

وقد ذكر القرآن مع كل نوع ما يلائمه ، فجاءت الفاصلة مع الآيات التاريخية والأثرية « أفلا يسمعون » وجاءت مع الآيات الحاضرة « أفلا يبصرون » .

ففي الأولى نفي للسمع على سبيل التوبيخ ، وفي الثانية نفي للبصر الذي هو سبيل المشاهدة والتبصر[1] .

وقال : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (الأنعام:٩٧-٩٩).

● اختلاف الفواصل لاختلاف المعاني :

سبقت هذه الآيات الثلاث تذكيراً للناس بِنَعمِ الله عليهم كل آية تُصوِّر لونًا من ألوان النعيم ، ومع ذلك جاءت فواصلها مختلفة ، وكل منها واقع موقعه من البيان البليغ ، فحساب النجوم والأفلاك في الأولى مختص بالعلماء فناسب أن تكون فاصلته : « لقوم يعلمون » .

وخلق الإنسان من نفس واحدة ، وتكثيره وتهيئة الرزق له ، وتدبير أمره في الحياة ثم القضاء عليه بالموت ، أمور لا تقوم على حدود رياضية ، بل على التأمل والاستنتاج ، وإمعان النظر وتكرار التأمل والفكر ، فناسب أن تكون فاصلته : « لقوم يفقهون » لأن الفقه أدق من مجرد العلم .

---

(١) من خزانة الأدب للحموي ص ٩٧ (بتصرف) .

أما الثالثة : فقد اختصت بالنِّعَمِ التي عليها تقوم مطالب الحياة الدنيا من إنزال الماء من السماء وسلكه في الأرض عيونًا وإنبات النبات به والزروع والأشجار ، فيأكل الناس والأنعام مما تنبت الأرض ، وهذه النِّعَم تقتضي شكر المنعِم بها من المنعم عليه ، فكان ـ بحسب الظاهر ـ أن تكون فاصلته : « لقوم يشكرون » فعدل عنها إلى : « لقوم يؤمنون » لنكتة أوجبت ذلك .

لأنها كما تقتضي شكر المنعم بما تقتضي الإيمان بواهبها ، والإيمان أصل في الشكر فأوثر على الفرع ، واكتفى به لتضمنه إياه ، ومثل هذا التضمين يسمى : « المضاعفة » في علم البديع[1] .

قلنا : إن اختلاف الفواصل هنا كان لاعتبارات فيما هي فاصلة له من اختلاف في جنس المنعَم به وقد تختلف الفاصلتان والمعنى واحد !

● اختلاف الفواصل مع اتحاد المعنى :

ولكن في القرآن ما هو مثير للدهشة ، ذلك أن الفاصلتين قد تختلفان والمحدَّث عنه واحد في الموضعين ، ومن هذا قوله تعالى : ﴿ **وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ** ﴾ (إبراهيم: ٣٤).

وقوله : ﴿ **وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾

(النحل:١٨) .

وقد أجاب ابن المنير على هذا الاختلاف في الفاصلتين مع اتحاد الموضوع فقال : « كأنه ـ أي الله ـ يقول : إذا حصلت النعم الكثيرة ، فأنت آخذها ، وأنا معطيها فحصل لك عند أخذها وصفان كونك ظلومًا وكونك كفارًا ، وحصل لي عند إعطائها وصفان : أني غفور وأني رحيم ، أقابل ظلمك بغفراني وكفرك برحمتي »[2] .

---

(١) انظر بديع القرآن لابن أبي الإصبع ـ تحقيق الدكتور حنفي شرف .

(٢) معترك الأقران في إعجاز القرآن للسيوطي .

وتخريج ابن المنير لاختلاف الفاصلتين مقبول ، لكنه لم يعالج الموضوع من جميع أطرافه لأن فيه سؤالاً ما زال قائمًا حاصله : لماذا أوثر وصف الإنسان في سورة إبراهيم على وصف الله ؟ ثم لماذا أوثر ـ كذلك ـ وصف الله في سورة النحل على وصف الإنسان ؟

وعندي .. أن إيثار وصف الإنسان في سورة إبراهيم لأن السورة عدَّدت كثيراً من مظاهر النعم ، فروعي جانب الإنسان فيها ، وقليل من الناس الشكور ، فقررت السورة موقف سواد الناس من النعم .

وإيثار وصف الله في سورة النحل ، لأن السورة تحدثت عن كثير من صفات الله في موطن يدَّعى فيه المضللون وجود شريك لله ـ سبحانه ـ فناسب أن يراعى فيها وصف الله دون الإنسان .

وعلى عكس هذه المسألة قد يختلف موضوعا الحديث وتأتي الفاصلتان متفقتين في الموضعين ، ومثال ذلك :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَبۡلُغُواْ ٱلۡحُلُمَ مِنكُمۡ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٖۚ مِّن قَبۡلِ صَلَوٰةِ ٱلۡفَجۡرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعۡدِ صَلَوٰةِ ٱلۡعِشَآءِۚ ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٖ لَّكُمۡۚ لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ وَلَا عَلَيۡهِمۡ جُنَاحُۢ بَعۡدَهُنَّۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيۡكُم بَعۡضُكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٥٨ وَإِذَا بَلَغَ ٱلۡأَطۡفَٰلُ مِنكُمُ ٱلۡحُلُمَ فَلۡيَسۡتَـٔۡذِنُواْ كَمَا ٱسۡتَـٔۡذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴾ (النور:٥٨،٥٩) .

وسر اتفاق الفاصلتين أنَّ الغرض من الكلامين واحد ، هو أدب الاستئذان، والمناسبة في الموضعين واضحة لأن المعنى : الله عليم بما فيه صلاحكم حكيم فيما شرعه لكم .

وتكرير الفاصلتين بألفاظ واحدة فيه تأكيد للإنذار من المخالفة ومبالغة في امتثال المكلَّفين بما أرشدوا إليه .

● **فواصل تحتاج إلى تأمل :**

وقد تبدو الفاصلة ـ بحسب الظاهر ـ غير ملائمة للمقام ـ فإذا ما تؤملت ظهرت دقة الحكمة فيها ، وقد مثَّلوا لها بقوله تعالى : ﴿ **إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ** ﴾ (المائدة:١١٨) .

وكان الظاهر يستلزم أن تكون الفاصلة هنا : « إنك أنت الغفور الرحيم» .

وسر العدول : أنه لا يغفر لمن يستحق العقاب إلا مَن ليس فوقه أحد يَرُدُّ عليه حكمه ، عزيز لا يُغلب .

وإذا كان الأمر ـ كذلك ـ فـ « الحكيم» لا يضع الشيء إلا في موضعه فلا يُتهم في غفرانه لمن يستحق العقاب ، ففي « الحكيم» احتراس حسن لأن الحكمة فيما فعل .

ومن روائع الفواصل في القرآن الكريم قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ** ﴾ (طه:١١٨،١١٩).

والمناسب بحسب الظاهر أن يُقرن الجوع بالظمأ لأنهما نظيران ، والعرى بالضحاء لأنهما نظيران كذلك ، لكن خولف هذا الظاهر ولهذه المخالفة أسباب :

(أ) فقد روعي مناسبة اللبس للشبع في أنهما أمران ضروريان لا غنى لأحد عنهما ، وروعي مناسبة الاستظلال للري في كونهما تابعين لهما ، فالري تابع للشبع ، والاستظلال تابع للباس[1] .

(ب) أجرى الخطاب بمقتضى العادة لأن العادة أن يقال : جوعان عريان ، كما أن الضاحي الذي لا يستر جسمه ساتر ، متعرض لحرارة الشمس فيشعر كثيرًا بالعطش .. فصار « الضحاء» كأنه سبب فقُرِنَ به .

---

(١) خزانة الأدب للحموي : ٢/٩٧ (بتصرف) .

(جـ) في هذه المخالفة لمحة من لمحات البيان الآسر ، سماها البديعيون : « قطع النظير عن النظير » والغرض من ذلك تحقيق تعداد النِّعَم ، ولو قرن كل بمماثله لتوهم متوهم أن المعدود نعمتان لا أربع .

● دليل من الشِّعر العربي :

وهذا السلوك البياني معروف لدى فحول الشعراء جاهليين وإسلاميين ، وقد أثار النقاد حوله جدلاً كثيراً ، واحتكموا فيما بعد إلى القرآن فيما نحن بصدد ذكره ، فاتخذوه معياراً للقياس فيما قاله الشعراء .

فقد قال امرؤ القيس الشاعر الجاهلي :

كَـأَنِّيَ لَـمْ أَرْكَـبْ جَـوَادًا لِلَـذَّةٍ وَلَـمْ أَتَـبَطَّنْ كَاعِبًـا ذَاتَ خُلْخَـالِ
وَلَـمْ أَسْـبأ الـزِّقَ الـرَّوِيَّ وَلَـمْ أَقُـلْ لِخَيْلِـي كُـرِّي كُـرَّةً بَعْـدَ إِجْفَـالِ

فقطع ركوب الخيل عن كره ، وقطع تبطن الكاعب عن اشتراء الخمر ، مع أنه المناسب وغرضه تكثير ملاذه .. والفخر بها .

وقد تبعه المتنبي وهو شاعر إسلامي فقال يمدح سيف الدولة :

وَقَفْتَ وَمَا فِي المَوتِ شَكٌّ لِوَاقِفٍ كَأَنَّكَ فِي جَفْنِ الرَّدَى وَهُوَ نَائِمُ
تَمُرَّ بِكَ الأَبْطَالُ كَلْمَى جَرِيحَةً وَوَجْهُكَ وَضَّاحٌ وَثَغْرُكَ بَاسِمُ

ويذكر الثعالبي[1] أن سيف الدولة عاب قول الشاعرين امرئ القيس والمتنبي لأن الوجه ـ عنده ـ أن يقول امرؤ القيس :

كَـأَنِّي لَـمْ أَرْكَـبْ جَـوَادًا وَلَـمْ أَقُـلْ لِخَيْلِـي كُـرِّي كَـرَّةً بَعْـدَ إِجْفَـالِ
وَلَـمْ أَسْـبأ الـزِّقَ الـرَّوِيَّ لِلَـذَّةٍ وَلَـمْ أَتَـبَطَّنْ كَاعِبًـا ذَاتَ خُلْخَـالِ

وأن يقول المتنبي :

وَقَفْتَ وَمَا فِي المَوتِ شَكٌّ لِوَاقِفٍ وَوَجْهُكَ وَضَّاحٌ وَثَغْرُكَ بَاسِمُ
تَمُرَّ بِكَ الأَبْطَالُ كَلْمَى جَرِيحَةً كَأَنَّكَ فِي جَفْنِ الرَّدَى وَهُوَ نَائِمُ

---

(١) يتيمة الدهر : ١/١٥ ، ١٦ .

وقد صوَّب بعض النقَّاد نقد سيف الدولة ، منهم ابن طَبَاطَبَا إذ يقول : « هما بيتان حسنان ، ولو وضع مصراع كل واحد منهما مكان الآخر لكان أشكل وأدخل في استواء النسيج »[1].

لكن المتنبي لم يُسَلِّم بهذا الحكم في شِعره ، وشِعر امرئ القيس ولم يمنعه صدوره من السلطان أن يدفع التخطئة الموجهة إليهما ، وابن رشيق في « العمدة » ينتصر لقول المتنبي بعد أن ساق الرواية بأسلوب آخر فقال : « قول امرئ القيس أصوب ، ومعناه أعز وأغرب ، لأن اللذة التي ذكرها إنما هي للصيد ، ثم حكى عن شبابه وغشيانه النساء ، فجمع في البيت معنيين ولو نظمه على ما قال المعترض لنقص فائدة عظيمة وفضيلة شريفة تدل على السلطان ، وكذلك البيت الثاني لو نظمه على ما قال لكان ذِكر اللَّذة حشواً لأن الزِّق لا يُسبأ إلا للَّذة ، فامرؤ القيس وصف نفسه بالفتوة والشجاعة ، بعد وصفها بالتملك والرفاهة »[2] .

وقد رجَّح بعض النُقَّاد قول الشاعرين على ما هما عليه لورود نظيرهما في القرآن الكريم[3] وكان دليله في ذلك آيتي « طه » المتقدمتين .

ذلك عرض موجز لدور الفواصل القرآنية من حيث الشكل « الألفاظ » والموضوع « المعنى » ، على أن لنا ملاحظة جديدة لم أر أحداً أشار إليها ، وسأرجئ الحديث عنها بعد إيجاز ما ذكره ابن أبي الإصبع من تقسيم الفواصل في القرآن .

• أقسام الفواصل :

قسَّم ابن أبي الإصبع فواصل القرآن أربعة أقسام وهي :

---

(١) الموشح للمرزباني ص ٣٤ .

(٢) العمدة في صناعة الشعر ونقده لابن رشيق : ١٧٣/١ .

(٣) فن الإسجاع ـ على الجندي .

١- **التمكين** : وحقيقته أن يمهد للقرينة تمهيداً تأتي به السجعة متمكنة في مكانها غير نافرة ولا قلقة متعلقًا معناها بمعنى الكلام تعلقًا تامًّا ، بحيث لو طُرِحت لاختل المعنى ، ولو سُكتَ عنها لأدركها السامع بطبعه .. ومثال ذلك من القرآن : ﴿ **قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ** ﴾

(هود:٨٧) .

فقد تقدَّم في الآية ذِكر العبادة ، ثم تلاه ذكر التصرف في الأموال ، فجاءت الفاصلة على الترتيب : « الحليم » ، « الرشيد » . فالحليم باعتبار العبادة ، والرشيد باعتبار التصرف في الأموال .

ومثله : ﴿ **لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ** ﴾ (الأنعام:١٠٣) . فاللطيف يناسب عدم إدراك الأبصار له ، والخبير يناسب إدراكه لما سواه ومنها الأبصار .

٢- **التصدير** : وهذه تسمية المتأخرين ، والمتقدمون ـ كابن المعتز ـ سموه رد الأعجاز على الصدور ، وقد قسَّمه ابن المعتز ثلاثة أقسام :

(أ) توافق آخر الفاصلة مع آخر كلمة في صدر ما قبلها مثل : ﴿ **أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ** ﴾

(البقرة:١٦).

(ب) توافق الفاصلة مع أول كلمة ، في صدور ما قبلها ومثاله : ﴿ **وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ** ﴾ (آل عمران:٨) .

(جـ) توافق الفاصلة مع إحدى كلمات الوسط ، ويسمى تصدير الحشو ، ومثاله : ﴿ **وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ** ﴾ (الأنعام:١٠) .

٣- **التوشيح** : وهو أن يتقدم في أول الكلام ما يدل على الفاصلة دلالة معنوية ، ومثاله : ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى**

﴿ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (آل عمران:٣٣) لأن لفظ «اصطفى» يقتضي أن تكون الفاصلة «العالمين» لأن المصطفى منه يجب أن يكون جنس المصطفى ، ويفرق بين التصدير والتوشيح ـ بهذا المعنى ـ أن التوافق في التصدير لفظي ، وفي التوشيح معنوي .

٤- الإيغال : وهو أن يختم الكلام بزيادة يتم المعنى بدونها ، ولكنها لا تخلو من الفائدة والتوكيد ، وقد خصَّه ابن رشيق بالشعر ، والصحيح خلافه ، ومثاله من القرآن الكريم : ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٢٠ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ (يس:٢٠،٢١) ، فقوله تعالى : ﴿ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ تأكيد لذلك المعنى ، وتقرير له على وجه أمكن وأمثل ، لأن اتباع المهتدى أمر مستحسن في نفسه تميل إليه النفوس ولا يختلف في فضله منصفان .

وقد تواترت الأخبار التي تدل على ما للفواصل من دور في خدمة المعاني تأكيدًا وتقريرًا وتوضيحًا ورمزًا ، ومؤدى تلك الأخبار واحد هو أن الفاصلة واقعة موقعها من الكلام بحيث لا يسد غيرها مسدها ، ولشدة تمكنها فإن الكلام الذي يتقدمها يستدعيها فنجد السامع يتوقعها ويكاد يحدد نوعها متى أدرك معنى سابقها .

ولا أرى ضرورة ذكر هذه الأخبار وأسانيدها هنا ، فإن التأمل في فواصل القرآن أكبر شاهد عليه ، وقد ضربنا له بعض الأمثلة ، والآن أريد أن أتعرض لتلك الناحية التي أشرتُ إليها من قبل والتي لم أعثر على إشارة إليها من أحد وبالله التوفيق ..

● بحث جديد في الفواصل القرآنية :

ذلك أنني ألاحظ ـ وهذه فكرة أطرحها للدراسة والبحث الأوسع ـ أن الفاصلة القرآنية في الآيات الطويلة ـ سواء أكانت في السور الطوال أو القصار أو المتوسطة الطول والقصر ـ تأخذ سمة الاستقلال بمعنى أنها تأتي بعد تمام

معنى أو معان رئيسية في الآية ، فتكون هي بمثابة تعليق عليها وتؤدي حينئذ وظيفة التعليل أو الإنكار ، أو التوكيد أو الترغيب ، أو زيادة الإيضاح ، وهي غالبًا ما تكون في هذا النوع جملة مستوفية الأركان ، ويغلب عليها أن تكون اسمية .

أما في الآيات القصيرة ، سواء أكانت في السور الطوال أو القصار ، أو المتوسطة الطول والقصر ، فتكون كلمة مكملة لمعنى الآية التي هي فيها معمولة من حيث الحكم النحوي لعامل فيها ، وليس لها سمة الاستقلال لأنها ليست جملة .

وقد تكون جملة قصيرة خاطفة ، فعلية أضمر فيها فاعلها ، ويغلب مجيء هذه الفواصل في السور القصار مما يسمونه « قصار المفصل » وما قارب ذلك.

ونذكر الآن بعض الأمثلة لهذين النوعين ، ثم نحاول توجيه هذا الصنيع الأدبي توجيهًا بيانيًّا ، وبالله التوفيق ..

● **فواصل الآي الطوال :**

قال الله تعالى من سورة البقرة : ﴿ **قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ** ﴾ (البقرة:٩٤-٩٨) .

فهذه خمس فواصل في خمس آيات وقعت الفاصلة فيها كلمة في جملة مستقلة بعد استيفاء المعاني الرئيسية لكل آية ، إلا فاصلة الآية الخامسة ، فقد بنى المعنى الرئيسي عليها ودخلت في أصل الدلالة .

وقال في سورة آل عمران : ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾

(آل عمران:٩٨،٩٩).

وهاتان آيتان جاءت الفاصلة فيهما كذلك كلمة في جملة أفادت معنى جديدًا بعد استيفاء معنى ما تقدمها .

وقال في سورة النساء : ﴿ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۖ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ ۚ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٤﴾ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ ۚ فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ ۚ وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٥﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (النساء:٢٤-٢٦).

فأنت ترى في هذه الآيات الثلاث ـ وقد اختلفت فيما بينها في الطول ـ أن فاصلة كل آية منها مستقلة ، فجملة الفاصلة في الأولى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ لأنها أعقبت تشريعًا خالصًا .

وفي الثانية : ﴿ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ لأنها أعقبت تشريعًا في حالات المخالفات التي توجب جدًّا يُقام على المخالِف ، وذلك يُشعر بوقوع الخطأ من بعض المكلَّفين .

وفي الثالثة كانت الفاصلة : ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ متفقة مع الأولى إلا في حكم الإعراب لأنها أعقبت بيانًا لما يريده الله من التشريع للناس ، والغاية العظمى للشارع من فرض الأحكام .

● **فواصل الآي القصار :**

ذلك شأن الفاصلة الغالب عليها في الآيات الطوال ، وفي السور الطوال أو ما قاربها ، أما في الآيات القصار أو ما قاربها ـ وكثيرًا ما يقع هذا في السور القصار أو ما قاربها ـ فإن الشأن مختلف .

فنجد الفاصلة فيها كلمة معمولة لعامل تقدم في بناء الآية قبل استيفاء معناها الرئيسي فهي ـ إذن ـ داخلة في تأديته ، وإذا وردت الفاصلة في هذه الحالات « جملة » فهي جملة قصيرة قد يكتفى فيها بذكر أحد ركنيها ، ويضمر الثاني إن كانت فعلية وقد تتعلق بكلمة الفاصلة معمولات لها فتحذف تلك المعمولات ، وتبقى الفاصلة ملحوظًا فيها ما أضمر أو ما حذف متعلقًا بها ، وقد ينتظم هذا النهج سورة كاملة ، وقد يقتصر على معظم آياتها .

هذا إجمال لا بد له من تفصيل ، ودعوى لابد لها من دليل ، فلنأخذ في سوق الأمثلة ، ولعل خير شاهد على ذلك سورة الواقعة ، فهي تكاد آياتها كلها تكون من هذا النوع ونكتفي منها بما يأتي :

﴿ إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝٣ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ۝٤ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝٥ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ۝٦ وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ۝٧ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ۝٨ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ۝٩ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝١١ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝١٢ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْـَٔاخِرِينَ ۝١٤ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ۝١٥ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ ۝١٦ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ۝١٧ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ۝١٨ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ۝١٩ وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ۝٢٠ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ۝٢١ وَحُورٌ عِينٌ ۝٢٢ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ ۝٢٣

﴿ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا وَلَا تَأۡثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلٗا سَلَٰمٗا سَلَٰمٗا ﴾ (الواقعة: ١-٢٦) .

هذه الآيات تمثل مطلع السورة ثم الحديث عن أحد الأزواج الثلاثة حديثًا تفصيليًّا بعد الإشارة إليها إجمالاً في صدر السورة .

والمتأمل يلحظ في فواصل هذه الآيات ـ كما هو الشأن في آيات السورة كلها تقريبًا ـ أن دلالة الفاصلة جاءت جزءًا من المعنى الأصلي للآية ، ومكملة له ، وكلمة «الفاصلة» خاضعة في الحكم النحوي لعامل في الآية ، إلا في ثلاثة مواضع بدت فيها الفاصلة ذات دلالة مستقلة ، وهذه المواضع الثلاثة : «.. ولا ينزفون» .. ثم «.. يتخيرون» ثم «يشتهون» وفيما عدا ذلك فإن الفاصلة تختلف ، فهي فاعل في الآية الأولى ، وهي صفة لمحذوف واقع اسمًا لـ «ليس» في الآية الثانية ، وهي صفة أو خبر بعد خبر في الثالثة ، ومفعول مطلق في الرابعة والخامسة ، وصفة في السادسة والسابعة ، وهكذا تجد الفاصلة جزءًا أساسيًّا من الآية ودلالتها جزءًا من المعنى الأساسي الذي من أجله سيقت الآية .

وقبل سورة الواقعة . فإن «القمر» و«الرحمن» يغلب عليهما هذا الطابع لأن العِلَّة ـ وهي قصر الآيات ـ مشتركة في المواضع الثلاثة .

ومثل هذه السور سورة الغاشية : ﴿ هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ ﴿١﴾ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٞ نَّاصِبَةٞ ﴿٣﴾ تَصۡلَىٰ نَارًا حَامِيَةٗ ﴿٤﴾ تُسۡقَىٰ مِنۡ عَيۡنٍ ءَانِيَةٖ ﴿٥﴾ لَّيۡسَ لَهُمۡ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٖ ﴿٦﴾ لَّا يُسۡمِنُ وَلَا يُغۡنِي مِن جُوعٖ ﴿٧﴾ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاعِمَةٞ ﴿٨﴾ لِّسَعۡيِهَا رَاضِيَةٞ ﴿٩﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٖ ﴿١٠﴾ لَّا تَسۡمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةٗ ﴿١١﴾ فِيهَا عَيۡنٞ جَارِيَةٞ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٞ مَّرۡفُوعَةٞ ﴿١٣﴾ وَأَكۡوَابٞ مَّوۡضُوعَةٞ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصۡفُوفَةٞ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِيُّ مَبۡثُوثَةٌ ﴿١٦﴾ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلۡجِبَالِ كَيۡفَ نُصِبَتۡ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَيۡفَ سُطِحَتۡ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ ﴿٢١﴾ لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن

﴿تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ (الغاشية:١-٢٦) .

● **غرضان من سورة «الغاشية» :**

هذه السورة تحقق لنا غرضين .

أحدهما : أن فاصلتها ـ غالبًا ـ كلمة معمولة نحويًّا لعامل في الآية ، فدلالتها ـ إذن ـ دلالة رئيسية بالنسبة للآية ، إذ هي مضاف إليه في الآية الأولى ، والمضاف فاعل لحديث الذي هو المعنى الرئيسي فيها ، لأنه المقصود بالتشويق بعد الاستفهام ، وخبر أو صفة في الثالثة ، وصفة لـ «نار» في الرابعة ، ولـ«عين» في الخامسة ، ومستثنى في السادسة ، ومتعلق بـ«يغني» في السابعة .

وهكذا لو تتبعنا آي السورة كلها ، وهذا هو الشأن الغالب في فواصل الآيات القصار أن تكون كلمات مفردة لها دور أساسي في تصوير المعنى الرئيسي في الآية أو المعاني الرئيسية إذا تعددت معانيها .

وثانيهما : أن خمس آيات منها جاءت فاصلتها جملة وهي لم تخرج عن أداء الدور الأساسي في بيان المعنى الرئيسي كذلك ، والذي نلاحظه عليها أنها جملة قصيرة قد أضمر فيها فاعلها ، وتلك الآيات هي :

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ﴾ (الغاشية:١٧-٢٣) ، فهذه الآيات الخمس جاءت فاصلتها جملة قصيرة ذكر أحد ركنيها «الفعل» ، وأضمر فيها الثاني : نائب الفعل في أربع ، والفاعل في واحدة .

بقي النوع الثالث من هذه الفواصل ، وهو ما تعلق فيه بكلمة الفاصلة معمولات غير الفاعل ، وحذفت مقدرًا ذِكرها ، أو ذُكِرت ومع ذكرها لم تطل جملة الفاصلة بل حافظت على سرعة إيقاعها وقصرها .

وظاهر من هذا العرض أن هذا النوع على ضربين .

أولهما : ما ذُكِرت فيه تلك المتعلقات وأمثلته كثيرة ، منها قوله تعالى : ﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ۝٣٠ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ۝٣١ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴾ (الحاقة:٣٠-٣٢) .

وقوله: ﴿ وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ۝٤ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ۝١١ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ۝١٢ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَىٰهَا ۝١٣ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ۝١٤ وَلَا يَخَافُ عُقْبَىٰهَا ﴾ (الشمس:١-١٥) .

بنيت فواصل هذه السورة جميعها على الهاء الذي هو ضمير المؤنثة الغائبة وقد اختلف موقع هذا الضمير من الإعراب لكنه لا يخرج عن حالتين :

الأولى : أن يكون في محل الجر بالإضافة .

الثانية : أن يكون في محل النصب على المفعولية ـ وهذا هو الغالب عليه ـ وهو في الحالتين معمول لعامل أساسي في بناء الآية ، ومثل هذه السورة في اتحاد الفاصلة على حرف واحد سورة « الناس » .

وثانيهما : وهو ما حذف فيه المتعلق ومثاله : ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴾ (الضحى:٦-٨) .

« وهذا النوع أقل ورودًا من سابقه ، وهو موجود متناثراً مع غيره من الفواصل من النوع الأول ومثله : ﴿ ٱلَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾ (الأعلى:٢،٣).

وقوله : ﴿ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴾ (النازعات:٢٣).

وقوله : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلْعُقَدِ ۝٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾ (الفلق:١-٥) .

● **والسر فيما أرى :**

ولعل السر البياني في نظام الفواصل السابقة على النحو الذي شرحناه ما يلي :

أولاً : أن السور القصيرة تشتمل على آيات قصيرة كذلك ، والآية القصيرة تهدف إلى بيان معنى واحد أو عدة معان سريعة التصور والإدراك ، وهي بذلك ليس مجالاً لذكر الأفكار الطويلة التي تحتاج إلى إطالة بناء الجملة أو الآية التي تصورها ، ومن هنا فإن الفكرة الأساسية تتطلب انتظام جميع الألفاظ لتأدية تلك الفكرة الخاطفة الموجزة ، أما في الآيات الطوال ـ كما في آية التداين من سورة البقرة ـ فإن الفكرة فيها ذات أصول وفروع ، وهي أصل من أصول التشريع عالجت مشكلة كثيرًا ما تحدث للناس فلم تترك فيها ثغرة أو تهمل جانبًا ، ومثل هذه المعاني المتشابكة حرى بأن يعقب بجملة أو أكثر تؤكد تلك المعاني أو تحث عليها ، أو توبخ المخالفين لها ، ومن الخير أن نذكر الآية التي اتخذناها مقياسًا هنا لتعدد المعاني وكثرتها .

● **نص آية التداين :**

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ أَن يَكۡتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلۡيَكۡتُبۡ وَلۡيُمۡلِلِ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبۡخَسۡ مِنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ سَفِيهًا أَوۡ ضَعِيفًا أَوۡ لَا يَسۡتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلۡيُمۡلِلۡ وَلِيُّهُۥ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ مِن رِّجَالِكُمۡۖ فَإِن لَّمۡ يَكُونَا رَجُلَيۡنِ فَرَجُلٞ وَٱمۡرَأَتَانِ مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحۡدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحۡدَىٰهُمَا ٱلۡأُخۡرَىٰۚ وَلَا يَأۡبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْۚ وَلَا تَسۡـَٔمُوٓاْ أَن تَكۡتُبُوهُ صَغِيرًا أَوۡ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقۡوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَرۡتَابُوٓاْۖ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةٗ تُدِيرُونَهَا بَيۡنَكُمۡ فَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَلَّا تَكۡتُبُوهَاۗ وَأَشۡهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعۡتُمۡۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٞ وَلَا شَهِيدٞۚ وَإِن تَفۡعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقُۢ بِكُمۡۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴾ (البقرة:٢٨٢) .

• تحليل آية «التداين» :

فانظر كم مسألة تشريعية عالجتها الآية ، وكم معنى صوَّرته ، ولم تنس أن تُبيِّن علل بعض الأحكام الواردة فيها كعلَّة اشتراط اجتماع المرأتين في الشهادة مع الرجل الواحد وهي أن تُذكِّر إحداهما الأخرى إذا ضلَّت ، وذلك حرص من الإسلام على صيانة المرأة حيث لم يبح للرجل ـ وهو شريك لها في شهادة الواقعة ـ أن يذكرها ، فاحتاط لذلك بشهادة اثنتين لهذا الغرض ، وكاشتراط الرضا بشهود الواقعة من الطرفين المتعاقدين وكبيان العِلَّة في التشريع نفسه فهو أقسط عند الله ، وأقوم للشهادة وأدنى ألا نرتاب في نفي الحق أو أجله المضروب ، وقد مزجت الآية التشريع في المعاملات بالتوجيه الأخلاقي في مواضع كثيرة منها .

ولذلك احتاجت الآية إلى فاصلة مستقلة ، وقد مهَّد لها ـ أي لهذه الفاصلة ـ بما هو في قوة الفاصلة: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (البقرة:٢٨٢).

• دليل يؤيد هذه الفكرة :

ويؤيد هذه الفكرة أن الغالب في الآيات القصار أن سورها مكية النزول ، وللقرآن في مكة مجال غير مجاله في المدينة ، فالقرآن المكي كان يهدف إلى محاربة الضلال في العقيدة والسلوك فجاء بموضوعات تخدم هذا الغرض من التبشير والإنذار ، والترغيب والترهيب ، لذلك كانت آياته قصيرة العبارة حادة سريعة الإيقاع عنيفة الوقع ، وفي المدينة كان مجاله التشريع وإرساء قواعد المجتمع الإنساني من حيث العبادات والمعاملات والأخلاق الإنسانية فاتجهت سوره وآياته إلى الطول والاستقصاء إلا أن يخاطب اليهود أو المنافقين فيكر.

والدعوة إلى الإسلام في بدء أمرها كانت لا تطلب من الناس وقوفًا طويلاً لتأملها فساقت لهم الإرشاد والتوجيه الإلهي في سورة وآيات قصار لسهولة فهمها وسرعة استيعابها ، لأنه كان بصدد تربية أمة خالية من أسس التربية

obeikan.com

القويمة فخاطبتهم بأوضح العبارات وأوجز المعاني كما يُفعل الآن في تربية النشء حيث يتدرج معهم المربي من تصور وإدراك الحرف الواحد ، إلى الكلمة الواحدة السهلة التركيب إلى الجملة القصيرة وما يزال يرقى بهم من طور إلى طور حتى يصل بهم إلى فهم الفقرات ودراسة النصوص .

والمتأمل في قصار السور المكية يتبين هذه الحقيقة دون ما شك أو ريب ، وسبحان الله إذ يقول : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ (القمر:١٧) .

٣- ألفاظ القرآن :

لألفاظ القرآن جانب كبير في سموه فوق أنماط التعبير الأخرى ، وتقوم هذه الألفاظ القرآنية على اعتبارات لم تتحقق لغيرها ، لذلك فإن النظر فيها لم يقتصر على جانب واحد ، بل يجد الباحث المجال فسيحًا أمامه حين يعمد إلى دراسة ألفاظ القرآن ، ولذلك فإننا نحدد منذ الآن الجوانب التي سندرسها في هذا البحث الذي خصصناه لدراسة اللفظ القرآني وتلك الظواهر يمكن إجمالها في الآتي :

(أ) روعة اللفظ القرآني في نفسه .

(ب) إصابته المقتل في الدلالة على معناه .

(جـ) خاصته التعبيرية في القرآن .

وجدير بالذكر أن هذه الجوانب سيأتي الحديث عنها ممزوجًا بعضه ببعض ، على أن نشير إلى كل ظاهرة حين ورودها في النماذج التي سنذكرها لبيان قيمة الألفاظ القرآنية الجمالية ودورها في قضية الإعجاز ...

• روعة اللفظ القرآني في نفسه :

« القرآن يتأنق في اختيار الألفاظ ، ويستخدم كلا حيث يؤدي معناه في دقة فائقة تكاد تؤمن معها بأن هذا المكان إنما خلقت له هذه اللفظة دون سواها ولذلك لا تجد في القرآن ترادفًا ، بل كل كلمة تحمل إليك معنى جديدًا .

فالألفاظ فيه قوية عنيفة في مقام التهديد والوعيد ، رقيقة عذبة في مجال الترغيب والتهذيب ، وهادئة حسنة في مقام التشريع والتفريع[1] .

ولهذا فإنك لا تجد في القرآن كلمة معيبة من حيث الصورة أو الاستعمال ، ولا تجد فيه لفظًا قلقًا مضطربًا أو نابيًا في موضعه ، إلى آخر تلك العيوب التي يرددها نقاد الشّعر وخبراء الأساليب .

وسلامة اللفظ القرآني من العيوب نعني بها أن الألفاظ في القرآن مختارة منتقاة لم يأت لفظ فيه حيثما اتفق ، بل تدبير حكيم عليم ، وإلى جانب انتقاء اللفظ القرآني من حيث صورة اللفظ نفسه ـ حروفه وحركاته وسكناته ـ فإن القرآن يؤثر استخدام الألفاظ القصار الثلاثية الأصول أو الرباعية الأصول ، والثلاثية الأصول فيه أوفر عددًا من الرباعية .

« أما أن اللفظة خماسية الأصول فهذا لم يرد منه في القرآن شيء ، لأنه مما لا وجه للعذوبة فيه ، إلا ما كان من اسم عُرِّب ولم يكن في الأصول عربيًّا ، كإبراهيم .... وإسماعيل ..... وطالوت ... وجالوت .. ونحوها . ولا يجيء فيه كذلك إلا أن يتخلله المد كما ترى ، فتخرج الكلمة وكأنها كلمتان »[2] .

وتحقيقًا لهذه الصفة ـ انتقاء الألفاظ وعذوبتها في القرآن ـ فإن القرآن يعمد إلى تهذيب ما قد يُعاب من اللفظ إذا دعا داع بلاغي لوروده فيه ، ولهذا فإنك ترى في القرآن كلمات يشهد الذوق بحسنها لأنها هُذِّبت ووُضعَت وضعًا مُحْكمًا فيه ، بينما تراها في غيره معيبة شاذة .. وذلك بشهادة النقاد أنفسهم ، وليس ذلك مجاملة منهم للقرآن لما له من قداسة ، بل لأسباب فنية أوضحوها ووجَّهوا إليها الأنظار .

---

(١) بلاغة القرآن ـ أحمد أحمد بدوي ـ ص ٥٧ (بتصرف) ط . نهضة مصر .

(٢) إعجاز القرآن ـ مصطفى صادق الرافعي ص ٢٦٠ ، ٢٦١ .

● ألفاظ حسنت في القرآن وعيبت في غيره :

من ذلك كلمة « مقاعد » ، فقد عابها النُقَّاد في شِعر الشريف الرضي حيث قال :

أعْـزِزْ عَلـيَّ بِـأنْ أَرَاكَ وَقَـدْ خَلَـتْ مِـــنْ جَانِبَيْـــكَ مَقَاعِـــدُ العُـــوَّادِ

قال ابن سنان الخفاجي ينقده : « فإيراد ـ مقاعد ـ في هذا البيت صحيح ، إلا أنه موافق لما يُكره ذكره في مثل هذا الشأن ، لا سيما وقد أضافه إلى مَن يحتمل إضافته إليهم ، وهم العُوَّاد ، ولو انفرد لكان الأمر فيه سهلاً ، فأما إضافته إلى ما ذكره ففيها قبح لا خفاء فيه »[1] .

ونقد ابن سنان لهذه الكلمة وجيه لا أظن أحدًا يخالفه فيه لأن المقام يقتضي العدول عن مثل هذه الكلمة جريًا مع الذوق وصحة المعنى .

والأساس الذي بنى عليه الخفاجي نقده هو أن الكلمة يُشترط في فصاحتها ـ عنده ـ ألا يسبق التعبير بها عن معنى يُكره ذكره ، وقد حكم بسلب الفصاحة عن كثير من الكلمات نزولاً على هذا الاعتبار .

وقد وردت هذه الكلمة ـ مقاعد ـ في القرآن الكريم عذبة رشيقة ، وذلك في مواضع منها : ﴿ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَـٰعِدَ لِلسَّمْعِ ﴾ (الجن:٩).

وقوله : ﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَـٰعِدَ لِلْقِتَالِ ﴾

(آل عمران:١٢١) .

فالمقاعد ـ هنا ـ في الموضعين بمعنى المنازل ، ولا يمكن أن يُفهم منهما المعنى الذي من أجله كره النقاد استعمال هذه الكلمة ، لأنها لم تضف إلى ما يمكن أن يُفهم من إضافتها إليه ذلك المعنى المستكره .. وذلك سر الجمال في هذين الموضعين[2] .

(١-٢) سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي ص ٧٥ ، ٧٦.

ومن ذلك ـ أيضًا ـ كلمة «تؤذي» . فقد عابوها في قول المتنبي :

تَلُـذُّ لَـهُ المـرُوءَةُ وَهِـيَ تُـؤْذِي وَمَـنْ يَعْشَـقْ يَلُـذُّ لَـهُ الغَـرامُ

والسبب أن الشاعر قطع الكلمة ـ وهي ثقيلة ـ عن الإضافة على العكس من كلمة «مقاعد» فإن عيبها جاء من إضافتها ، ولو أضافها لخفف من ثقلها .

وقد جاءت في القرآن في مواضع هي فيها حسنة رائقة ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ﴾ (الأحزاب:٥٣) . «لذلك كانت هذه الكلمة ـ هنا ـ أجمل منها في بيت المتنبي ، والحكم في ذلك للأذن الموسيقية»[1] .

فالقرآن ـ كما ترى ـ استعمل الكلمة واقعة على مفعول «النبي» فخفت ورشقت وهي في قول المتنبي مقطوعة عن الإضافة .

ومن ذلك كلمة «ضِيزى» ، وهي أغرب ما في اللغة من كلمات ، بله القرآن ، ولقبح هذه الكلمة لم يستعملها عربي فيما وصل إلينا من أقوالهم وأشعارهم ، ومع ذلك فإنك تجد لها من الحسن في القرآن أضعاف ما ترى لها من القبح والغرابة في غيره .

قال تعالى في سورة النجم موبخًا أهل الشرك : ﴿ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ۝٢١ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴾ (النجم:٢١،٢٢) .. «ولحسن هذه الكلمات في هذا الموضع عدة اعتبارات :

١- أن السورة التي وردت فيها فاصلة لإحدى آيها ألفية الفواصل ، فجاءت الكلمة ذات نغم صوتي ملتئم ، مع فواصل الآي الأخرى ، ولو وضع موضعها «جائرة» وهي قسيمتها في الدلالة لجارت على الموضع وفاتت المناسبة وحسن الجوار ، فجيء بها ـ أي ضيزى ـ لذلك الالتئام والتناسق الصوتي الذي لا يخفى أثره .

---

(١) النقد الأدبي ـ أحمد أمين : ٥٦/١ .

٢- أنها جاءت معلقة على سلوك معيب حيث جعلوا لله الإناث ـ سبحانه ـ ولهم الذكور ، مع الإصرار على قتلهم البنات .

٣- أن الآية الأولى : ﴿ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴾ (النجم:٢١) اشتملت على استفهام إنكاري ، والآية الثانية : ﴿ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴾ اشتملت خاتمتها على التهكم ، وهما معنيان متناسبان ، أولهما كالمقدمة لثانيهما ، وهذه الكلمة الغريبة ـ ضيزى ـ أليق ما تكون دلالة على التهكم ، لأنها وضعت حالة المتهكم في إنكاره من إمالة الرأس واليد بهذين المدين منها إلى الأسفل والأعلى ، وجمعت إلى كل ذلك غرابة الإنكار بغرابتها اللفظية .

٤- وإن تعجب فعجب نظم هذه الكلمة نفسها ، وائتلافها مع ما قبلها إذ هي مقطعان أحدهما مد ثقيل ، والآخر مد خفيف ، وقد جاءت عقب غنتين في « إذن » و« قسمة » إحداهما خفيفة حادة ، والأخرى ثقيلة متفشية ، فكأنها بذلك ليست إلا مجاوبة صوتية لتقطيع موسيقي ، وهذا معنى رابع للمعاني الثلاثة الأول »[١] .

٥- وخامس هذه المعاني أن هذه الكلمة الدالة على المعاني الأربعة المذكورة إنما هي أربعة أحرف أيضًا[٢] .

• سمات أخرى لحسن اللفظ في القرآن :

ومن مظاهر تهذيب الألفاظ في القرآن أن الحركات النحوية والصرفية ، تجري في الوضع والتركيب مجرى الحروف والكلمات فيما يثبت لها من أمر الفصاحة ، إذ يهيئ بعضها لبعض ، ويمهد له ، حتى إن الحركة الثقيلة لسبب من أسباب الثقل المعروفة تعذب وتستساغ في التركيب القرآني .

---

(١) إعجاز القرآن ـ للرافعي .

(٢) نقلنا هذه الدراسة في شيء من التصرف من كتاب « إعجاز القرآن والبلاغة النبوية » للرافعي ، ص ٢٦٢ .

وذلك مثل كلمة «النُذُر» في قوله تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْاْ بِٱلنُّذُرِ** ﴾ (القمر:٣٦) ، فكلمة «النُّذر» ثقيلة منفرة ، بما فيها من تشديد النون ، وتوالي الضمات ، فكان التمهيد في صدر الآية لذلك بالقلقلة في الدال من «لقد» والطاء من «بطشتنا» وبثلاث عشرة فتحة متناثرة على الحروف من واو «ولقد» إلى راء «فتماروا»، وبالمد في ألف «بطشتنا» كأنها تثقيل لخفة التتابع في الفتحات ، وترويض للسان عليه ليكون ثقل الضمة مستخفًا بعد ولتكون هذه الضمة قد أصابت موضعها كما تكون الأحماض في الأطعمة .

وقد جاءت راء «تماروا» مساندة لـراء «النُّـذُر» حتـى إذا انتهـى اللسـان مـن هذه انتهى إلى مثلها ، فتخف عليه ولا تغلظ ولا تنبو فيه ، ثم انظر لتلـك الغنـة التي سبقت الطاء في نون «أنذرهم» وفي ميمها ، وللغنـة الأخـرى الـتي سـبقت الذال في «النُّذُر» [(١)].

وقد تمهد الحروف لإيثار كلمة على أخرى تشترك معها في أصل الدلالة ، ومن ذلك فيما يبدو قوله تعـالـى : ﴿ **مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ** ﴾ (الأحزاب:٤) .. حيث لم يقل «في بطنه».

كما في قوله تعالى حكاية عن امرأة عمران : ﴿ **رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا** ﴾ (آل عمران:٣٥)، وكان يمكن أن تقول : «في جوفي» وذلك لأن حرف الجيم تكرر في الآية الأولى مرتين ـ كما ترى ـ فناسب ذلك إيثار الكلمة التي تبدأ بالجيم «جوفه» على ما خلت منه «بطنه» ، وقد غفل أحد الباحثين عن هذا التوجيه عند حديثه عن الفروق بين الكلمتين في الاستعمال القرآني [(٢)].

ومن مظـاهر التهـذيب في ألفـاظ القـرآن أن مـا يختـل فيـه شـرط الفصـاحة بالطول من الكلمات يأتي عذبًا جميلاً فيه لبناء تلك الكلمات في أسـلوبه علـى نسق بديع يجنبها ثقل التطويل .

---

(١) إعجاز القرآن ـ للرافعى ـ ص ٢٦٢ .

(٢) هو أحمد أمين : انظر النقد الأدبي جـ ١ .

ففي القرآن كلمتان بلغت حروف إحداهما عشرة أحرف وهي : ﴿ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ ﴾ (النور:٥٥) ومثلها ثقيل على اللسان ناب في السمع ، أما هي فقد وقعت موقعًا عذبًا لا ثقل فيه ولا نبو وذلك لأن مخارج حروفها فيما بينها متباعدة ، ونظم حركاتها ساحر ، إذ تتكون من أربعة مقاطع ـ ينتهي كل مقطع بسكون يسكن معه النفس فتخرج الكلمة متجزئة كأنها أربع كلمات لا كلمة واحدة .

والكلمة الأخرى بلغت حروفها تسعة أحرف ، وهي : ﴿ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ﴾ (البقرة:١٣٧) ، وجاءت ذات ثلاثة مقاطع ، وقد تكرر فيها الياء والكاف ، وتوسط الكافين مد هو سر الفصاحة في الكلمة كلها ، لأنه خفف من اجتماع المثلين ، كما فصل بين اليائين بالكاف الأولى والفاء ، وانتهى كل مقطع من مقاطعها الثلاثة بالسكون كذلك ، فنزلت منزلة ثلاث كلمات ، كما ترى ، وعذبت رغم طولها .

● **سياسة لغوية :**

وهذا ـ أعني سكون المقاطع ـ سياسة لغوية مطلوبة في تهذيب بعض الألفاظ التي يُلمح فيها نوع من الثقل بسبب الطول ، أو توالي الحركات ، ألا ترى أن النحاة يلجأون إلى مثل هذا حينما يُسكِّنون ما أصله التحريك فرارًا من ذلك الثقل ، وبذلك حكموا بتسكين آخر الماضي إذا اتصل به ضمير رفع متحرك مثل : « ذهبت» ، وعِلَّتهم في ذلك كراهة توالي أربعة متحركات فيما هو كالكلمة الواحدة .

ولك أن تقيس على هاتين الكلمتين في سياسة التقطيع والتسكين في المقاطع كلمتين أخريين جاءتا في القرآن إحداهما ذات عشرة أحرف ـ مثل الأولى ـ والثانية ذات سبعة أحرف .

أما الأولى فهي قوله تعالى : ﴿ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴾ (هود:٢٨) ، وأما الثانية فهي قوله تعالى حكاية عن إبليس يخاطب أولياءه يوم القيامة : ﴿ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ ﴾ (إبراهيم:٢٢) .

ولك أن تدير اللسان بهما جميعًا فهل تجد من ثقل أو نبو ، إن اللسان ليكرهما كرًّا وقد مُهِدَ السبيل له ليسهل عليه ذكر الكر .

● **توجيه القرآن لانتقاء الألفاظ :**

وأعجب العجب أن القرآن لا يكتفي بانتقاء الألفاظ في نماذجه ، بل هو يشرع في ذلك صراحة وينبه إلى خطأ وقع لاستعمال اللفظ في غير موضعه ويرشد على بديله ، وذلك في موضعين فيه :

أحدهما قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُواْۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (البقرة:١٠٤) .

وثانيهما قوله تعالى : ﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمْۖ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (الحجرات:١٤) .

ولقد أبانت كتب التفسير سر هذا الخطأ في الموضعين ، ففي سورة البقرة نهى القرآن المسلمين أن يقولوا : « راعنا » ؛ لأن هذه الكلمة كانت لليهود كلمة مثلها يستعملونها في السب ، وأصلها كلمة عبرانية معناها « أحمق » ، فلما سمع اليهود المسلمين يقولون هذه الكلمة افترصوها ، ومن هنا ورد النهي عنها وجيء لهم بلفظ يعدله في المعنى لا شُبهة فيه لأحد ، وهو « أنظرنا » لعدم التشبه باليهود فيما يقولون ، ولكي يسد عليهم منافذ الطعن والسباب[1].

فالخطأ ـ هنا ـ مُلاحَظ فيه تنزيه مخاطبات المسلمين عما يردده أعداؤهم من اليهود مما ليس معنى مشين .

أما الخطأ في قول الأعراب : « آمَنَّا » فإنَّ اللغة والشرع يفرقان بين معنى اللفظين ، فالإيمان الذي اشتقوا منه الفعل « آمَنَّا » مطلوب في تحقيقه أمران : نطق باللسان ، وتصديق بالقلب ليواطئ القول الاعتقاد ، وهم لم يكونوا كذلك

---

(١) تفسير الكشاف للزمخشري : ١/١٣٠ .

لأن نصيبهم من الشريعة حين ادعوا ذلك لا يجاوز القول باللسان والمتابعة الظاهرين بدليل : ﴿ وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡ ﴾ (الحجرات:١٤) .

وحالهم هذه ينطبق عليها معنى الإسلام ـ الذي اشتق القرآن منه في توجيههم «أسلمنا» ـ إذ هو حقيقة الامتثال الظاهري للشريعة من قول أو عمل ، لذلك وجههم القرآن إلى أن يقولوا قولاً مطابقًا لحالهم وهو «أسلمنا»[1] .

- **ملحظ بياني دقيق :**

والخطأ هنا لغوي اصطلاحي كما ترى .

وفي الآية ملحظ بياني دقيق إذ أمر الله رسوله أن يقول لهم : ﴿ لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ ﴾ وعَطْف قوله تعالى : ﴿ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا ﴾ يقتضي أن يكون المعطوف عليه : «لا تقولوا آمنَّا» ليعطف القول على القول ، وإنما عدل عنه كراهة أن يقع النهي بحال على ما هو محمود ومطلوب[2] ، ولذلك لم يأت مما شأنه كذلك إلا مع القرينة القوية الصارفة عن كل وهم مثل قوله تعالى : ﴿ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ ﴾ (النساء:٤٣) ، وقوله : ﴿ فَوَيۡلٞ لِّلۡمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ ﴾ (الماعون:٤،٥) .

- **إيثار أحد اللفظين للمناسبة :**

ولعل من روائع اختيار القرآن لألفاظه ما ذكره ابن أبي الإصبع في قوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلۡغَرۡبِيِّ إِذۡ قَضَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلۡأَمۡرَ ﴾ (القصص:٤٤) فإنه سبحانه وتعالى لما نفى عن رسوله وحبيبه ﷺ كونه بالمكان الذي قضى له فيه بكلمة الأمر ، عرَّف المكان بالجانب الغربي ، ولم يصفه بـ «الأيمن» كما قال في أمر موسى عليه السلام : ﴿ وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ ﴾ (مريم:٥٢) أدبًا منه سبحانه وتعالى مع نبيه ﷺ أن ينفي عنه كونه بالجانب الأيمن .

---

(١) تفسير الكشاف للزمخشري : ٢٩٩/٤ .

(٢) استقينا هذا التوجيه من تفسير الكشاف للزمخشري مع التصرف .

فالمكان الذي نودي منه موسى عليه السلام يمكن أن يدل عليه بوصفين: كونه الجانب الأيمن ، وكونه الجانب الغربي ، فآثر القرآن في الإخبار عن موسى «الجانب الأيمن» في تعريف المكان لأنه كان قارًّا عليه ، وفيه قضى إليه ربه أمر الرسالة ، ففي ذلك تشريف له .

وكان في خطاب محمد ﷺ التعريف بالجانب الغربي لأنه لم يكن قارًّا عليه والكلام مسوق لنفي الكينونة ، واستعمال الجانب الغربي دون الجانب الأيمن في حال نفي للكينونة أليق بمقام الرسول الكريم لخلوه من نفي كونه بالأيمن ، ففي العبارة أعجب احتراس كما يقول ابن أبي الإصبع[1] .

● **كنايات القرآن عما يقبح التصريح به :**

ومن شواهد اختيار اللفظ في القرآن الكريم أنه يُكَنِّي عما يكون بين الرجل وزوجه بألفاظ غاية في النزاهة والشرف ، فمرة يُكَنِّي عنه بالإتيان ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ **نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ** ﴾ (البقرة:٢٢٣) .

ومرة يُكَنِّي عنه بالرفث ، قال : ﴿ **أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ** ﴾ (البقرة:١٨٧) .

وأخرى بالتغشية ، قال : ﴿ **فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ** ﴾ (الأعراف:١٨٩).

وتارة بالقربان ، قال : ﴿ **وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ** ﴾ (البقرة:٢٢٢).

وأخرى باللمس ، قال : ﴿ **أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ** ﴾ (النساء:٤٣) .

كما كنى عنه بالمس وذلك في الموضعين الآتيين : ﴿ **قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ** ﴾ (آل عمران:٤٧) .

وقال : ﴿ **قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَـٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا** ﴾(مريم:٢٠).

---

(١) بديع القرآن ـ تحقيق الدكتور محمد حنفي شرف ص ٩٤ (بتصرف) .

وظاهر أن هذه الإطلاقات إنما هي في جانب الحلال ، ومثلها التكنية عنه بالنكاح في مواضع كثيرة ، كقوله تعالى في سورة النساء : ﴿ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ﴾ (النساء:٣) .

ويطول بنا الحديث لو رحنا نذكر مواضع ورود هذه الكلمة فلنكتف بهذا المثال .

والنكاح في عُرف الفقهاء فيه مذهبان : حقيقة في الوطء ، مجاز في العقد أوالعكس ، وجاء في مفردات الراغب : « أصل النكاح للعقد ، ثم استُعِير للجِماع ، ومحال أن يكون في الأصل للجِماع ثم استُعِير للعقد ، لأن أسماء الجِماع كلها كنايات لاستقباحهم ذِكره كاستقباح تعاطيه ، ومحال أن يستعير مَن لا يقصد فحشًا اسم ما يستفظعونه لما يستحسنونه »[1] .

فالراغب يمنع أن يُراد بالنكاح غير العقد حقيقة ، والاستعمال القرآني لا يمنع من إرادة هذا المعنى ، فالنكاح فيه صالح لحمله على كلا المعنيين : العقد والوطء ، وقد يقوى حمله فيه على الوطء مثل قوله تعالى : ﴿ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ ﴾ (البقرة:٢٣٠)، إذ يرى الفقهاء أن الزوج الثاني لا يحللها للأول بمجرد العقد عليها ، بل لابد من الخلوة بها ، ويقوى من هذا المعنى قوله ﷺ لامرأة تسأل هل تحل لزوجها الأول بدخول الثاني دون الوطء : « لا .. حتى تذوقي عُسَيْلته ويذوق عُسَيْلتك » .

ومن أبدع تعبيرات القرآن عن هذا المعنى قوله تعالى : ﴿ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا ﴾ (البقرة:٢٣٥) ، فإن السر مجاز عن الوط ، والوطء مجاز عن العقد ولذا فهم يسمونه مجاز المجاز[2] .

والعلاقة في الأول الملازمة ، لأن الوطء لا يحدث إلا سرًّا ، وفي الثاني المسببية لأن الوطء مسبب عن العقد ، كما يُطلق عليه المباشرة قال : ﴿ فَٱلْـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ (البقرة:١٨٧) .

---

(١) مفردات القرآن ـ الراغب الأصفهاني ص ٥٠٦ .

(٢) معترك الأقران في إعجاز القرآن للسيوطي : ٢٦٨/١ .

ذلك في جانب الحلال ، أما في جانب الحرام فقد شاع استعمال كلمة «الزنا» وهي كلمة لا ابتذال فيها وتقابل كلمة «النكاح» في جانب الحلال ، قال : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ (الإسراء:٣٢) ، وقد تستعمل كلمات أخرى في الدلالة على هذا المعنى مثل الفاحشة والبهتان والبغاء والسوء والسفاح والإفك ، قال : ﴿ وَٱلَّٰتِى يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَٱسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ ﴾ (النساء:١٥) .

وقال : ﴿ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴾ (النساء:١٥٦) .

وقال : ﴿ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا ﴾ (النور:٣٣) .

وقال : ﴿ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا ﴾ (يوسف:٢٥).

وقال : ﴿ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ ﴾ (المائدة:٥).

وقال : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ﴾ (النور:١١) .

قارن بين كنايات النوعين ـ الحلال والحرام ـ تجد ما أطلقه القرآن على الحلال كلمات تبعث في النفس الرغبة والارتياح ، وما أطلقه على الحرام كلمات تثير في النفس شعور النفرة والارتياع ، ومتى بلغ أسلوب ما هذه المنزلة من التأثير القوي كان نموذجًا ناجحًا وأدبًا رفيعًا ، فما بالك بالقرآن وهو في أعلى درجات البلاغة والقوة .

● **شُبه مردودة :**

ولعل قائلاً يقول : إذ حالفكم التوفيق فيما ذكرتموه من نزاهة ألفاظ القرآن وشرفها فيما سقتم من أمثلة ، فماذا تقولون في ذكر القرآن «الفَرْج» و«الفروج» مرادًا بها مواضع يُكره ذكرها ؟ وماذا تقولون في قوله تعالى : ﴿ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ ﴾ (النساء:٤٣) ؟ .

وللإجابة على هذه الشُّبه نقول :

وردت كلمة «الفرج» في القرآن الكريم مرادًا بها موضع العِرض في المواضع الآتية : ﴿ وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ (الأنبياء:٩١) .

ومثل هذه جاء قوله تعالى : ﴿ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴾ (التحريم:١٢) .

وهاتان الآيتان في شأن مريم لإثبات العفة لها ، وصونها عن كل قبيح فهما إخبار عن أمر قد كان .

وقريب منه في الإخبار عما هو واقع قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴾ (المؤمنون:٥ ، والمعارج:٢٩) .. وقد وردت هذه الآية مرتين في القرآن الكريم .

ومثله قوله تعالى : ﴿ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ ﴾ (الأحزاب:٣٥) .

ووردت هذه الكلمة في سياق أمر تشريعي على طريقة الإنشاء لا الإخبار عما وقع ولا عن ما هو واقع ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ﴾ (النور: ٣٠،٣١).

كما وردت فيه مراداً بها غير هذا المعنى ، قال تعالى : ﴿ وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴾ (ق:٦) .

وقال : ﴿ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ﴾ (المرسلات:٩) .

وظاهر من الآيتين الفرق بين المعنى الذي تعنيه الآيات الأولى .. والمعنى الذي تعنيه هاتان الآيتان ، إذ المراد فيهما بـ « الفروج » : الشقوق والفتوق[1] .

● وجوه الرد :

وليس ورود هذه الكلمة في القرآن بخارج عما ثبت لألفاظه من النزاهة والشرف وذلك لعدة أمور :

---

(١) مفردات القرآن ـ الراغب الأصفهاني مادة « فرج » .

أولاً : أنَّ هذه الكلمة لم توضع وضعًا خاصًّا للدلالة على موضع العِرض ، بل هي كناية عنه شاعت فيه حتى قربت من الحقيقة العُرفية .

هذا لأن الكلمة في اللغة تقع مشتركًا لفظيًّا بين عدة مسميات ، وقد جاء في المفردات : « الفرج ، والفرجة : الشق بين الشيئين كفرجة الحائط ، والفرج ما بين الرجلين وكنى به عن السوأة حتى صار كالصريح فيها ، قال تعالى : ﴿ وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا ﴾ (الأنبياء:٩١)، ﴿ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ﴾ (المؤمنون:٥) ، ﴿ وَيَحۡفَظۡنَ فُرُوجَهُنَّ ﴾ (النور:٣١) واستعير الفرج للثغر ، وكُلٌّ موضع مخافة .. وقوله تعالى : ﴿ وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٖ ﴾ (ق:٦) أي شقوق وفتوق ، قال : ﴿ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتۡ ﴾ (المرسلات:٩) : أي انشقت . والفَرَج : انكشاف الغم ، يقال : فرَّجَ الله عنك ، ورجل فرج : لا يكتم سره ... »[1] .

فأنت ترى من هذا العرض أن هذه المادة : « فرج » تُطلق على عدة معان ، وموضع العِرض من الإنسان واحد منها ، وقد علمنا أن إطلاقها عليه من قبيل الكناية لا التصريح ، وأن عِلَّة الإطلاق ملحوظة فيه بحسب الوضع العام في اللغة .

ثانيًا : أنَّ هذه الكلمة لم تُستخدم في القرآن إلا في سياق الإحصان أو الحفظ بحسب ما كان كما في الحديث عن مريم ابنة عمران ، أو بحسب ما هو كائن كقوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ﴾ (المؤمنون:٥) ، أو بحسب ما ينبغي أن يكون كقوله تعالى : ﴿ قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡ ﴾ (النور:٣٠) ، ﴿ وَقُل لِّلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَغۡضُضۡنَ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِنَّ وَيَحۡفَظۡنَ فُرُوجَهُنَّ ﴾ (النور:٣١) .

ثالثًا : أنَّ ورود هذه الكلمة في القرآن إما في موضع مدح أو تشريع ، المدح فيما كان أو فيما هو كائن ، والتشريع فيما ينبغي أن يكون ، فلذكرها

---

(١) مفردات القرآن ـ الراغب الأصفهانى مادة « فرج » ص ٢٧٥ .

ـ إذن ـ داع قوي لأنها في مقام المدح ـ حيث قرنت بالإحصان أو الحفظ ـ هي دليل العفة التي من أجلها كان المدح .

ولأنها في مقام التشريع : الموضع الذي يجب أن يُصان ويُحفظ فصرَّح بها اعتناءً بأمرها وحتى لا يحتمل المقام سواها .

أما قوله تعالى : ﴿ **أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ** ﴾ (النساء:٤٣): فإن «الغائط» هو المكان الذي تُقضى فيه الحاجات ، فالتعبير كنائي ـ كما ترى ـ والمقام مقام تشريع ، ومع هذا فقد عدل القرآن عن الاسم الصريح إلى ما هو وارد مورده حفظًا للفظه من الابتذال ، ولو فعل لكانت الضرورة التشريعية خير مبرر .

ثم انظر إلى قوله تعالى في شأن آدم وحواء حين أضلهما الشيطان فأكلا من الشجرة التي حرَّمها الله عليهما : ﴿ **فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ** ﴾ (طه:١٢١)، فإنَّ الأكل كان سببًا في التبرز فعدل عنه إلى ذكر السوءات .

ويبدو في هذا التعبير لون من القسوة لأن المقام مقام معصية وعقاب فهل ترى أدبًا في الحديث أروع من هذا الأدب .

- **إصابة اللفظ القرآني :**

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ **وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ** ﴾ (هود:٤٤) فقد آثر الاستواء على غيره ولم يقل : رست أو استقرت ، لأن الاستواء يدل على معنى لا يدل عليه واحد من نظيريه المذكورين .

فالاستواء يدل على الاستقرار أو الرسو المطمئن مع اعتدال الوضع ، أما الرسو والاستقرار فقد يكونان على غير وضع الاعتدال كأن ترسو السفينة أو تستقر وهي منكسة مثلاً على الشاطئ .

والاستقرار المعتدل الوضع هو المعنى المطلوب في جانب نجاة المؤمنين من الهلاك وسلامتهم من الطوفان .

ونفي التنكس ـ مثلاً ـ مطلوب في مكان عَمَّ الطوفان فيه وجه الأرض ، وغمر الماء النازل من السماء ، والمتفجر من الأرض كل سهل ووعر ، لئلا يقع في الظن أو الاعتقاد أن تكون السفينة قد تعرضت لشيء من الصعوبات ، والله قد صوَّر لنا خطورة المجرى إذ يقول : ﴿ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ ﴾ (هود: ٤٢).

لذلك كان إيثار لفظ «الاستواء» على غيره أنسب لمقتضى الحال ، حتى يعلم المخاطَبون كيف صنعت عناية القادر بعباده المؤمنين .

● طريق الدلالة في اللفظ القرآني :

إن القرآن حين يختار لفظًا تجده دالاً على معناه بالجرس ، أو بالظل ـ أو بالجرس والظل معًا ـ وفي هذا المنهج يبدو لون من التناسق أعلى من البلاغة الظاهرية وأوقع من الفصاحة اللفظية ، اللذين يحسبهما بعض الباحثين في القرآن أعظم مزايا القرآن[1] .

والفروق بين هذه المواضع جد دقيقة ، قد يصعب العزل بينها ، ولكنها سمة من سمات التعبير القرآني .

ولنأخذ ـ الآن ـ في ذكر بعض النماذج :

● الظل :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ﴾ (الأعراف: ٤٠) .

الهدف من الآية : بيان أن المكذِّبين بآيات الله والمستكبرين عن عبادته لن يحظوا بالقبول عند الله ، ولن يدخلوا الجنة ، وقد رتب حصول هذه المنافع لهم على أمر مستحيل هو دخول الحبل الغليظ في الثقب الدقيق لآلة الخياطة ، والمرتب على المستحيل مستحيل كذلك .

---

(١) النقد الأدبي أصوله ومناهجه ـ سيد قطب ص ٣٩ .

لكنه لم يذكر لفظ «الحبل» بل وضع موضعه لفظ «الجمل» وهو مشترك لفظي بين الحبل والحيوان الضخم المعروف .

وإنما أوثر لفظ «الجمل» مرادًا منه «الحبل» لأن فيه دلالة ليست في الحبل ، فالحبل مهما كان غليظًا لا يبلغ ضخامة الجمل ، وهو ـ أي الحبل ـ متفاوت في الدقة والغلظ ، ولو صرَّح به لوقع في الوهم أنه الحبل الدقيق ، فتقرب المسألة حينئذ من الإمكان .

بَيْدَ أن هذا الإمكان غير متصوَّر مع «الجمل» ذلك الحيوان الضخم الذي نشاهده مثل الصخرة العظيمة .

ولتأكيد حرمانهم وشقائهم اختاره القرآن ليقطع عندهم كل أمل ما داموا في شقاق مع ربهم ، وإن السامع ليقع في خلده حين يسمع هذه الآية أن المراد بـ«الجمل» هو ذلك الحيوان الضخم ، ولا يكاد يتصور منه «الحبل الغليظ» لاشتهاره في الأول ، ونُدرة إطلاقه على الثاني .

فهذا جدير بأن يسمى معنى ثانيًا للفظ يدركه الخيال ، واللفظ ـ هنا ـ دال على هذا المعنى الثاني بظله كما ترى .

● **الجـــرس :**

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَاۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي كُلَّ كَفُورٖ ۝٣٦ وَهُمۡ يَصۡطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا ﴾ (فاطر:٣٦،٣٧) .

ونقصد في هذا النص كلمة «يصطرخون» بالذات لأنها تُبيِّن جأرهم باللجوء إلى الله أن يخلصهم مما هم فيه ، وهي بجرسها الغليظ الصاخب ورنينها الخشن الصاك ، الذي يكاد يخترق صماخ الأذن ، تمثل الموقف أدق تمثيل .

فإن الصراخ المنبعث من نفوس تئن تحت وطأة العذاب صراخ عال مدوٍّ يختلط بعضه ببعض ـ بدءًا ونهاية ـ ويملأ المكان صخبًا ورنينًا ، وإنك لتلحظ

أثر «الصاد» و«الطاء» في إبراز الصوت بمثل هذه الصورة الغليظة ، فهل كنت تحس شيئًا من ذلك لو وُضِعَت كلمة «يدعون» الهادئة الوديعة مكان «يصطرخون» ـ الهادرة العنيفة ، وهل كنت تقف على بلوغ قلقهم المدى لولا كلمة «يصطرخون» الملائمة لجوهم النفسي أدق ملاءمة وأبرعها .

● الظل والجــرس :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ ﴾ (التوبة:٣٨) .

والهدف من الآية الإنكار على المتقاعدين عن الجهاد ، واستثارة هممهم للغزو في سبيل الله لأنهم كلما دُعوا إلى القتال تراخوا وفترت عزماتهم .

فجاءت كلمة «اثاقلتم» تصوِّر المعنى أبدع تصوير لأن المتثاقل يقاوم حركات الرافعين له ، كلما رُفِعَ تساقط وهوى إلى الأرض ، والذين قعدوا عن الجهاد مثلهم مع الداعي إليه مثل المتثاقل مع رافعيه .

هذه صورة يدركها الخيال ، ومنظر ماثل أمام الناظرين تصوِّره كلمة واحدة هي «اثاقلتم» بما تثيره من خيال «ظل» ، وبما توحي به نغماتها من رنين «جرس» فهي تتكون ـ بحسب نطقها ـ من أربعة مقاطع صوتية ، وكل مقطع منها مكوَّن من فتح وسكون ، والفتح والضم حركة تشبه دعوة الداعي ، والسكون على المقاطع تملص من تلك الحركات الرافعة ، وإخلاد إلى الأرض .

ولنا أن نقارن بين الكلمة المدعوين إليها «انفروا» والكلمة الجانحين هم إليها «اثاقلتم» فللأولى خفة ، توحي بمعنى الانطلاق ، وللثانية ثقل يوحي باللصوق بالأرض ، فبينهما ما بين الحركة السريعة والبطء المتثاقل !

وخذ إليك قوله تعالى : **﴿ كَأَنَّهُمۡ حُمُرٞ مُّسۡتَنفِرَةٞ ۝ فَرَّتۡ مِن قَسۡوَرَةِۭ ﴾** (المدثر:٥٠،٥١) وتأمل الصورة تأملاً تدرك منه سر اختيار هذه الكلمات : «حُمُر» و«مستنفرة» و«فرت» و«قسورة» وإذا وصلتَ إلى ذلك أدركتَ إلى

أي مدى كان الكافرون يُعرضون عن الدعوة ويشردون منها شرودًا بالغًا مداه كما تشرك الحُمُر المستنفرة إذا هاجها الصياد أو الأسد المفترس .

وهم يشردون خائفين منها لما فيها من نُذُر تطير منها قلوبهم التي غمرها الشيطان بغوايته ونفوسهم التي أسرها الهوى بضلاله ، وكلمة « مستنفرة » تزيد المعنى دقة ووضوحًا لأن من الحُمُر حُمُرًا أهلية تأنس إلى مَن تراه وليست هذه منها بل هي مستنفرة تفزعها مجرد الرؤية بله الطلب وتوقع الخطر ، وكذلك كلمة « فرت » إذ تبين هذه الكلمة أنهم لشدة إعراضهم لم يشردوا من الداعي ماشين على أقدامهم فوق الأرض ، بل طائرين في الفضاء كما يصنع الطير المهيج .

وقد اشترك الظل مع الجرس في دلالة هاتين الكلمتين « مستنفرة » ، « فرت » كما ترى .

﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾ (الأعراف:١٧٥).

هذه الآية تصوِّر ـ كذلك ـ تملص رجل من الإذعان لهدى الله ، وقد اختير للدلالة على هذا المعنى كلمة « انسلخ » وهذا اللفظ يرسم لنا الصورة عنيفة فظيعة ولهذه الصورة رمز ومعنى .

فالانسلاخ لغة : إزالة الستور ، يقال : انسلخ الرجل من ثيابه إذا طرحها ، والشاة إذا أزيل عنها جلدها ، فكان خروج هذا الرجل عن طاعة الله إلقاء لستوره وما يحفظ عليه أمره ، فهو ـ بعد ـ لا يلوى على شيء من أسباب الكرامة ودواعي التوقير .. قال الزمخشري في توجيه هذا المعنى : « فحططناه ووضعنا منزلته »[1] .

---

(١) جاء في مختار الصحاح : « والمسلوخ الشاة التي أزيل عنها الجلد ، وانسلخ الشهر من سنته ، والرجل من ثوبه » ص ٣٠٩ .

ومعنى آخر يُفهم من هذا التعبير ، ذلك أن الانسلاخ للشاة لا يكون إلا بعد الذبح ومحال أن يُسلخ جلد شاة وهي على قيد الحياة ، وفي هذا تضمين يوحي بأن هذا الرجل ومَن كان على شاكلته أموات غير أحياء ، وليس هذان المعنيان بغريبين عن البيان القرآني ، فهو حافل بالصور التي يوصف الكفار فيها بالضعة وبالأموات .

﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴾ (الطور:١٣) .

الحديث ـ هنا ـ عن أهل النار حين يُساقون إلى مأواهم فلا تساعدهم أقدامهم على السير رهبةً وفزعًا ... فتدفعهم الزبانية في أعلى ظهورهم مما يوازي صدورهم ، ومَن شأنه ذلك يُسمع لصدره صوت غير إرادي يتكوَّن من هذا المقطع « أ ع » ولهذا كانت هذه الكلمة مصوِّرة للمعنى بجرسها ورنينها .

● **تناسب اللفظ القرآني مع معناه :**

ومما يتصل بهذا المعنى أن ألفاظ القرآن تأتي عنيفة قوية في مقام التهديد والوعيد وما أشبه ذلك ، ورقيقة عذبة في الترغيب والتبشير وما أشبههما ، هادئة ثرية في مقام التشريع والتوجيه وما قاربهما .

فمن أمثلة التهديد والوعيد :

﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّا ۖ إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾ (المدثر:١١-٣٠) .

فانظر إلى عنف الألفاظ إلى أي مدى يصل ، وإن العنف ليبلغ مداه في مواطن الحُكم من النص الذي أثبتناه من سورة المدثر ، وذلك في موضعين :

﴿ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴾ ـ ﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴾ وقد بدأ هذا النص بكلمة أعنف ما تكون في هذا الموضع : ﴿ ذَرْنِي ﴾ وياويل مَن كان هذا تهديدًا له ، إنهن كلمات قاتلات أوقع في النفس من أمضى سلاح .

ومثله : ﴿ وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً ﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالاً وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلاً ﴿١٤﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولاً ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلاً ﴿١٦﴾ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ ۚ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولاً ﴿١٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلاً ﴾

(المزمل:١١-١٩) .

تأمل هذا النص ، ثم أنعم نظرك في هذه التعبيرات : ﴿ وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ ـ ﴿ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً ﴾ ـ ﴿ أَنكَالاً وَجَحِيمًا ﴾ ـ ﴿ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴾ ـ ﴿ تَرْجُفُ ٱلأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ ﴾ ـ ﴿ يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴾ ـ ﴿ أَخْذًا وَبِيلاً ﴾ ـ ﴿ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ ۚ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولاً ﴾ .. ألم تجدها ذاهبة في القوة والإرهاب إلى أبعد أثر .

ومثله : ﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴾ (النبأ:٢١-٣٠).

إن موجة العنف تبدأ من أول كلمة في النص ، ولكنها لا تنتهي حتى بآخر كلمة تصوِّره ، فقد اشتملت الآية الأخيرة على الفعل المضارع الواقع في حيز النفي ﴿ فَلَن نَّزِيدَكُمْ ﴾ وهنا ربما وهم الواهمون أن جزاء هؤلاء مقصور على ما ذُكِرَ فيما مضى من النص ، ولكن هذا الوهم مدفوع بالاستثناء ﴿ إِلَّا عَذَابًا ﴾ .

فالزيادة المنفية هي الزيادة التي من جنس الرحمة ، أما الزيادرة التي من جنس العذاب فلاحقه بهم ما دامت السموات والأرض ، وفي هذا من تبكيتهم وحسرتهم ما لا يخفى .

ومثله : ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُۥ ۝٢ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ۝٣ كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ۝٤ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ۝٥ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝٦ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ۝٧ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ۝٨ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ﴾ (الهمزة: ١-٩).

هذه مثل ، وغيرها كثير ، لم نرد بذكرها الاستقراء التام ، بل نماذج وشاهد صدق على ما نقول .

● **الذم :**

ويقرب من مقام التهديد والوعيد ، مقام الهجاء والذم ، ومن أمثلة ذلك : ﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝١٠ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ۝١١ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ۝١٣ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ۝١٤ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَـٰتُنَا قَالَ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٥ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ۝١٦ إِنَّا بَلَوْنَـٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ ﴾ (القلم: ١٠-١٧) .

ومثله : ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَـٰشِيَةِ ۝١ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَـٰشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۝٤ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ۝٥ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ۝٦ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ ﴾ (الغاشية: ١-٧) .

ومثله : ﴿ وَأَصْحَـٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَـٰبُ ٱلشِّمَالِ ۝٤١ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ۝٤٢ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ۝٤٣ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ۝٤٤ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ۝٤٥ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ۝٤٦ وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ۝٤٧ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ۝٤٨ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْـَٔاخِرِينَ ۝٤٩ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَـٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ۝٥٠ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ۝٥١

﴿ لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴾ (الواقعة:٤١-٥٦) .

وهذا نهج القرآن حين يتحدى ، ولنذكر لذلك بعض النماذج :

﴿ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴾ (الحج:١٥) .

ومثله : ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴾

(البقرة:٢٣،٢٤) .

ومثله : ﴿ قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴾ (الإسراء:٥٠،٥١) .

● **إجمال :**

هذا تصريف القرآن في القول بحسب المقام ، ولكل مقام مقال ، فترى كل لفظة وقعت موقعها ، بحسب السياق ، وبحسب ما يناسب كل حالة من حالات المخاطَبين ، فما من موضع مما ذكرنا نلمس فيه مداهنة أو ليونة ، أو تقصيراً في أي جانب من جوانب القول ، قوة وفخامة في الألفاظ ، ورهبة وعنفًا في المعاني ، لذلك كان الكافرون يرهبون سماعه ويصدون عنه صدوداً ، ويفرون منه كما تفر الحُمُر من رميات السهام ، ألم يحك عنهم القرآن قولهم : ﴿ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ ﴾ (فصلت:٢٦) .

أوَ لم يضع الوليد بن المغيرة يده على فم الرسول ﷺ ليكف عن القراءة رهبة منه حين سمعه يتلو قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ (فصلت:١٣) وهو يقول : بحسبك يا ابن أخي .

هذا لما كانوا يرونه فيه من آيات النذر المؤثر ، والوعيد المخيف ، ولو تأملنا ما نزل من القرآن بمكة ، موطن الصدود والتحدي لوجدناه حافلاً بهذا اللون من التعبير ، خاصة في قصار سوره ومتوسطها .

● **الترغيب :**

فإذا خرج القرآن عن مقامات التهديد والوعيد ، والتحدي والهجاء ، إلى الترغيب والتوجيه أو العتاب والتنبيه ، فإنَّ له مسلكًا غير هذا المسلك ، وسبيلاً غير تلك السبيل .

فانظر إليه في مقام الترغيب كيف يقول : ﴿ **وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ (النور:٢٢) .

في الآية الكريمة ترغيب في الإنفاق والبذل لمستحقيه ، وقد جاءت الألفاظ سلسة عذبة ، فيها إثارة لعمل الخير ، وترغيب بعد ترغيب ، ففي مطلع الآية يأتي التعبير : ﴿ **أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ** ﴾ ، وهو أنسب مطلع بالنسب لموضوع الحديث ، ثم عطف عليه ﴿ **وَٱلسَّعَةِ** ﴾ لأنه ـ مع ما عُطِفَ عليه ـ تذكير بنعمة الله على المخاطَبين ، والفضل والسعة نعمتان تستوجبان شكر مَن أولاهما ، ومن مظاهر شكرهما الإنفاق الذي يدور عليه محور الآية الكريمة .

وجاء التعبير بـ ﴿ **أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ** ﴾ ـ ﴿ **وَٱلْمَسَٰكِينَ** ﴾ ـ ﴿ **وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ** ﴾ ، وهي أوصاف تثير في النفس شعور العطف والحنان ، ثم يأتي قوله تعالى : ﴿ **وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ** . . ﴾ حاثًّا النفوس حتى لا يعوقها عن الإنفاق عائق .

ويأتي قوله تعالى: ﴿ **أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ** ﴾ حاثًّا المؤمنين على المغفرة .. وكانت ﴿ **أَلَا** ﴾ مهيئة الشعور لهذا الترغيب والعرض الجميل ، ومَن الذي يغفر ؟ الله : ﴿ **وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ .

إن السامع لهذه الكلمات يشعر بالأمن يملأ جوانب نفسه ، وبالمغفرة تمحو كل خطاياه فينطلق منفقًا في السر والعلانية .

ومثله : ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ (آل عمران:١٠٣،١٠٤) .

والآيتان دعوة إلى التمسك بالدين وآدابه ، وقد خدمت الألفاظ الفكرة المرجوة من النص خدمة جليلة :

﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ﴾ - ﴿ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ﴾ - ﴿ فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ ﴾ - ﴿ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا ﴾ - ﴿ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ﴾ - ﴿ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ - ﴿ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ ﴾ - ﴿ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ - ﴿ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ .

كلمات مفصلات لمواقف تتطلبها .. ومعان تشع منها .

ومثله : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الصف:١٠-١٣) .

وهذا النص كسابقه يتسلل إلى خفايا النفوس بندائه الذين آمنوا في المطلع ، والعرض اللطيف في : ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ ﴾ ، وتمثيل الأعمال الصالحة بالتجارة التي تنجي من عذاب أليم ، ويذكر الإيمان بالله والجهاد في سبيله بالمال والنفس ، والحكم على هذه الأعمال بأنها خير للمخاطبين يدركون خيرها لو حصلت لهم أسباب العلم النافع .

ثم انظر إلى الجزاء الذي أشارت إليه الآية الأولى : ﴿ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ ، وفصَّلته الآيتان الأخيرتان : ﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ .

ثم انظر إلى قمة التشويق والإثارة في قوله : ﴿ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ﴾ .. فالأخرى محبوبة ، والنصر من الله لا من غيره ، والفتح قريب ، وقد أجمل «الأخرى» في صدر الآية ثم فصَّلها فيما بعدها ، وذلك شرط الفخامة وعنصر التشويق .

ومن حسن المطلع ، وحسن الختام أنَّ النص بدأ بنداء المؤمنين ، واختتم ببشارة المؤمنين ، وبين النداء والبُشرى جنات ورياحين .

ويسلك القرآن هذا المسلك إذا وصف مادحًا ، ونكتفي بمثال واحد فيه غناء أيما غناء : ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴾ (الفتح:٢٩) .

صورة بهيجة ، ومنظر ضاحك ، ترسمه ألفاظ فتبدع في الرسم ، وتترك للخيال حرية التصور ذاهبًا فيه إلى أبعد مداه .

● **العتاب :**

والقرآن ينتهج في العتاب نهجًا فريدًا ، جامعًا فيه بين العذوبة والرِّقة والقوة، وهذان أمران أساسيان في كل عتاب ناجح ، لأنَّ العتاب مقام يقتضي نوعين من المعاني والألفاظ لأنه لا يكون إلا عن تقصير أو خطأ ، هذا أحد سببيه الأقوى ، ولا يكون إلا حين يُرجى من المعاتَب عود إلى الجادة ، وتوخي الصواب .

وعتاب القرآن الذي يهمنا هنا نوعان :

أولهما : عتاب الله رسوله .

ثانيهما : عتاب المؤمنين .

وفي كلا النوعين جاء عتابه ناجحًا ، لاشتماله على الخاصتين المذكورتين : تذكير قاس بما كان مما استوجب العتاب ، وإغراء على الرجوع إلى الحق والحث عليه بما يُثيره النص من بوارق الأمل وأسباب العفو .

● **عتاب النبي ﷺ :**

فمن عتاب الله رسوله قوله تعالى : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ۝٤ أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخۡشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠ كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ ۝١١ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝١٢ فِي صُحُفٖ مُّكَرَّمَةٖ ۝١٣ مَّرۡفُوعَةٖ مُّطَهَّرَةِۭ ۝١٤ بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ ۝١٥ كِرَامِۭ بَرَرَةٖ ﴾ (عبس:١-١٦) .

وهذا أقصى عتاب وجَّهه الله لرسوله عليه السلام ، وبَيَّنَ له فيه كثيرًا من الحقائق ، وفي هذا العتاب ـ مع قسوته ـ اشتمل القرآن على كثير مما يخففه ، ويَبيِّن حُسن نية الرسول عليه السلام فيما بدر منه حين أعرض عن عبد الله ابن أم مكتوم وأقبل على وفد قريش يحاورهم .

فقد خفف من قسوة هذا العتاب أنَّ الله لم يسند العبوس والتولي للرسول مواجهًا له به فجاء مُسندًا إليه على طريقة الغيبة : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴾ ، ولم يقل له : عبستَ وتوليتَ وهو مقتضى الحال ، ترقيقًا له في العتاب حتى لكأن العابس والمتولي شخص آخر غير محمد عليه السلام ، والجمهور يسمون هذا السلوك القولي : وضع الغيبة موضع الخطاب ، ويسميه السكاكي : التفاتًا ، إذ لا يُشترط أن يسبقه التعبير بواحد من طرقه الثلاثة ، وأيًّا كان الخلاف بينهم فإن المؤدى واحد هو كراهة إسناد ما لا يليق بالرسول على سبيل الخطاب .

وخفف منه ـ أيضًا ـ أن القرآن أبان أن ما حدث من الرسول لم يكن لغرض شخصي بل لباعث من بواعث الرسالة التي جاء بها ، وهو حرصه

الشديد على هداية هؤلاء الناس فكأنه أراد أن يستميلهم بحديثه وإقباله عليهم ، أما ابن أم مكتوم فمؤمن لا يتأثر بمثل هذه الأعمال التي بدرت من الرسول عليه السلام لمصلحة دينية توقعها هو .

ولطف العتاب مع الرسول أمر ملحوظ في القرآن ، انظر إليه يقول : ﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ (التوبة:٤٣) . فمبالغة في لطف عتاب الله له ، صدَّر العتاب بالعفو من أول الأمر ، وقُدِّم على ما استحق من أجله العتاب : ﴿ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ ﴾ ، وأن العتاب الرقيق يدل على عِظَم منزلة المعاتَب عند المعاتِب ، أن يبادره بالعفو ، ثم يأخذ معه في بيان ما خالفَ فيه مما لا ينبغي ألا يكون ..

وقد غلا الزمخشري في توجيه هذه الآية حيث قال : ﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ ﴾ كناية عن الجناية ، لأن العفو رادف لها ، ومعناه : أخطأتَ وبئس ما فعلتَ[1] .

وغلوه في هذا التوجيه ظاهر ، لأنه حمَّل الكلمة ما ليس من طبيعتها وصرَّح بما لم يصرِّح به الله في كتابه ، ولو كان هذا الذي يقوله الزمخشري مطلوبًا لله من هذه الآية لما منع مانع من ذكره ، ولو أنه فسَّر قوله تعالى : ﴿ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ ﴾ بما قاله في تفسير : ﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ ﴾ لكان لقوله شُبهة قبول لأن ﴿ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ ﴾ هو موضوع المخالفة .

وقد تعقب ابن المنير قول الزمخشري ، وخطَّأه فيه ، ثم قال : « ولقد أحسن مَن قال في هذه الآية : إنَّ من لطف الله تعالى بنبيه أن بدأ بالعفو قبل العتب ، ولو قال له ابتداءً : ﴿ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ ﴾ لتفطر قلبه عليه السلام ، فمثل هذا الأدب يجب احتذاؤه في حق سيد البَشر عليه الصلاة والسلام »[2] .

---

(١) تفسير الكشاف للزمخشرى : ١٢٥/٢ .

(٢) المرجع السابق : « الهامش » .

● **عتاب المؤمنين :**

وجاء في عتاب المؤمنين حين خاضوا في حديث الإفك ولم يتثبتوا : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (النور: ١١-١٨).

وفي هذا النص الحكيم تتعانق مظاهر القسوة مع اللين،والخوف مع الرجاء، والصفح مع العقاب .. فقد وردت في هذا النص هذه الكلمات : ﴿ بِٱلْإِفْكِ ﴾ - ﴿ ٱلْإِثْمِ ﴾ - ﴿ تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ ﴾ - ﴿ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ - ﴿ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ﴾ - ﴿ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴾ - ﴿ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ ﴾ - ﴿ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴾ - ﴿ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴾ - ﴿ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا ﴾ .

وهذه كلها كلمات عامرات بقذائفها ، لأن الذنب الذي ارتكبوه عظيم الأثر ، إذ المرمى به أمٌّ من أمهات المؤمنين ، وزوج النبي الكريم .

فهذا اجتراء على الله وعلى رسوله ، وعلى المحصنات المؤمنات الغافلات ، لذلك كله جاءت مظاهر العنف في هذا العتاب بالغة القوة ، ووجهت إليهم الجناية من طرق عديدة .

ولأن الخطاب مع مؤمنين ، ويُرجى منهم الخير والعودة إلى سواء السبيل ، خففت حدة هذا العتاب ، فسرت فيه روح الأمل وأخرجته من الوعيد إلى العتب المرجو منه التوجيه والإثابة .

انظر إلى هذه الإشراقات : ﴿ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ﴾ ـ ﴿ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ ـ ﴿ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا ﴾ ـ ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ ﴾ ـ والتعبير بالمس دون غيره تخفيف من الله في العتاب ـ ﴿ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا ﴾ ـ ﴿ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ .

● **التشريع :**

أما في التشريع فإنَّ اللفظ القرآني يأتي وسطًا بين النوعين إلا أن يقتضي المقام عنفًا أو لطافة .

ولنذكر مثالاً للنص التشريعي في القرآن الكريم :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ ۚ وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (البقرة:١٨٣-١٨٥) .

هذا نص تشريعي خالص أدى بكلمات هادئة ـ كما ترى ـ حتى في مواضع الإثارة من النص فأنت ترى فيه هذه التعبيرات وهي في مواطن الإثارة والحث على عمل الخير : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ ـ ﴿ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ ﴾ ـ ﴿ وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ ـ ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ .

وصفوة القول في ذلك أنَّ ألفاظ القرآن فضلاً عن اختيارها وروعتها في أنفسها تأتي ملائمة للمقام الذي وردت فيه ، ولو أدرت اللغة من ألفها إلى

يائها لتضع موضع اللفظ آخر يسد مسده من كل الوجوه رجوتَ مستحيلاً ، وعُدتَ كليلا .

أما خواص اللفظ القرآني من حيث التعبير ، بعد انتقائه في نفسه ، وإصابته المقتل في الدلالة على معناه .. فإننا منذ الآن يجدر أن نصطلح على نظرية نحن بصدد التدليل عليها ، وهذه النظرية هي :

- **منهج الالتزام :**

ولهذه النظرية عدة جوانب : فمن التفرقة الدقيقة بين الألفاظ واستعمال كل لفظ في معنى دون غيره مع استعمال نظيره فيه دون ما خلط بين استعمال اللفظين ، وهذا المنهج غير مألوف في أساليب الناس ، وقد تقع تلك التفرقة الدقيقة بين الألفاظ في استعمالات المادة الواحدة كأن يختص استعمالها فعلاً في معنى ويطرد ذلك الاستعمال فيه ، ويختص استعمالها اسمًا في معنى آخر كذلك .

إلى التزام جمع الكلمة دون أن يأتي منها مفرد أو مثنى ، أو التزامها مفردة دون أن يستعملها مجموعة أو مثناة .

أو التزام استعمالها منفية ، ولم ترد فيه مثبتة بحال من الأحوال .

إلى غير ذلك من الاعتبارات مما لا يقع تحت حصر إلا باستقراء الألفاظ القرآنية كلها في بحث متخصص في هذه الناحية .

وهذا إجمال لا بد له من تفصيل ، وسنحاول عند التنبيه على هذه الخصائص في نماذجها توجيه هذا السلوك بقدر ما يهدي إليه النظر ، مفوِّضين علم ذلك إلى الله فهو وحده المستأثر بأسرار كتابه .

- **التزام الجمع :**

فقد التزم القرآن جمع كلمتي : «الأرجاء» و«الألباب» . ولم يأت منهما بمفرد ولا بمثنى ، قال : ﴿ **وَٱلۡمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرۡجَآئِهَاۚ وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ ثَمَٰنِيَةٞ** ﴾ (الحاقة:١٧) .

وقال : ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (الرعد:١٩) .

- التزام الإفراد :

والتزم الإفراد في كلمة «الأرض» في كل موضع ذُكِرَت فيه ، وما أكثر مواضع ذكرها فيه مصاحبة للسماء ، أو السموات ، وهي سواء أفردت السماء أو جُمِعَت مذكورة معها فإنَّ الإفراد هو طابعها في كل موضع .

قال : ﴿ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴾ (طه:٦).

وقال : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأَيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (آل عمران:١٩٠) .

وحين يريد القرآن صيغة الجمع من الأرض فإنه لا يخرج عن مبدأ هذا الالتزام فيأتي بالأرض مفردة ، ويدل على الجمع منها بالوصف .

قال : ﴿ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ (الطلاق:١٢). أي مثل السموات سبع أرضين .

وقال : ﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ ﴾ (الرعد:٤) .

ومما التزم فيه صيغة الجمع كلمة «أكواب» وكلمة «الظلمات» ، فلم تأت واحدة منهما في موضع منه مثناة أو مفردة .

قال : ﴿ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴾ (الإنسان:١٥).

وقال : ﴿ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ ﴾ (الأنبياء:٨٧) .

وكذلك التزم الجمع في كلمة «الأرائك» قال : ﴿ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۖ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴾ (الإنسان:١٣) .

وقال : ﴿ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴾ (المطففين:٣٥) .

وفي مظاهر الكون التزم الإفراد في «الشمس» و «القمر» و«الضحى» و«النهار». قال: ﴿ وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ﴾ (الشمس:١-٣) .

وقال : ﴿ وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴾ (الضحى:١،٢).

ووجه الإفراد في الشمس والقمر ظاهر ، إذ لا ثاني لهما في الوجود ، والتأمل إنما في الضحى والنهار .

فإذا أريد بالنهار الجمع عدل عن لفظه إلى لفظ «الأيام» قال : ﴿ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا ﴾ (الحاقة:٧).

كذلك التزم الإفراد في لفظ «النور» ، عكس التزامه الجمع في لفظ «الظلمات» ، والتزم التعريف في كلمتي «الناس» و «الصدور» مجموعًا أو مفردًا .

قال : ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ (النور:٣٥) .

وقال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ ﴾ (الحجرات:١٣) .

وقال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ (البقرة:٢١) .

وقال : ﴿ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴾ (الناس:٦) .

وقال : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ (آل عمران:١١٩) .

وقال : ﴿ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ﴾ (الأنعام:١٢٥) .

وقال : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ (الشرح:١).

- التزام التنكير :

والتزم التنكير في كلمة «شيء» في كل موضع وردت فيه ، قال : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (النور:٤٥).

وقال : ﴿ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴾ (الذاريات:٤٢) .

وقال : ﴿ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (الذاريات:٤٩) .

وقال : ﴿ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ﴾ (المائدة:١٧) .

وقال : ﴿ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾ (المائدة:١٠١) .

وقد كثر ورود هذه الكلمة «شيء» في القرآن الكريم ، ولا تخرج عن هذا المنهج الذي التزمه القرآن فيها ما دام قد صرَّح بلفظها الدال عليها .

- التزام النفي :

وقد التزم القرآن كذلك النفي في كلمة «يشعرون» في كل موضع وردت فيه ، فلم يأت إلا في سياق النفي .

قال : ﴿ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ (البقرة:٩) .

وقال : ﴿ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَـٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ (النمل:١٨).

وهذا النفي كثيرًا ما يأتي في مواضع الذم ـ مثل الآية الأولى ـ وقليلاً ما يأتي في غيره مثل الآية الثانية .

- التزام الإثبات :

والتزم الإثبات في بعض الكلمات مثل كلمة «طبع» مستخدمًا لها في موضع الذم في كل موضع وردت فيه .

قال : ﴿ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (النساء:١٥٥).

وسيأتي تفصيل ذلك في فصل المجاز ، تلك ملاحظة دقيقة يجدها الباحث في ألفاظ القرآن ، أنها ذات خواص تعبيرية لم تشترك معها فيها أية أساليب أخرى .

● وجه آخر لنظرية الالتزام :

وللفظ القرآني خاصة أخرى غير الخواص التي ذكرناها غير التزام الجمع أو الإفراد وغير التزام التعريف أو التنكير ، وغير التزام النفي أو الإثبات .

وهذه الخاصة هي أن القرآن يُفرِّق بين الكلمتين المتفقتين في المعنى فيستعمل إحداهما في موضع لا يتعداه ، ويستعمل الأخرى في موضع آخر لا يتعداه إلى موضع الأولى ، وهما عند الناس ـ خاصتهم وعامتهم ـ تستويان في الدلالة فلا يجدون بينهما فرقًا .

وقد فطن إلى هذا الملحظ الدقيق في ألفاظ القرآن الجاحظ حيث يقول : «وقد يستخف الناس ألفاظًا ، ويستعملونها وغيرها أحق بذلك منها ، ألا ترى أنَّ الله تبارك وتعالى لم يذكر في القرآن «الجوع» إلا في موضع العقاب أو في موضع الفقر المدقع ، والعجز الظاهر ، والناس لا يذكرون السغب ، ويذكرون الجوع في حالة القُدرة والسلامة .

وكذلك كلمة «المطر»، لأنك لا تجد القرآن يأتي به إلا في موضع الانتقام، والعامة وأكثر الخاصة لا يفصلون بين ذكر المطر وذكر الغيث»[1] .

ولبيان ذلك نقول :

• الأب ليس والدًا ؟

خذ كلمتي «والد» و«أب» واستعرض استعمالات الناس لهما تجد أنهما سواء في الدلالة فهما مترادفتان ، فكلا اللفظين يصح إطلاقه على المولود له «الذكر» فهو أب وهو والد .

فإذا تتبعتَ استعمالات القرآن لهذين اللفظين تجده مخالفًا لما ألفه الناس وعلمتَ وجه الصواب فيه ، والخطأ في غيره .

فالقرآن لم يطلق كلمة «الوالد» على الأب الذكر إذا ذكره منفردًا أو مجموعًا جمعًا مقصودًا به الذكور دون الإناث ، بل يطلق عليه أو عليهم كلمتي «الأب» و«الآباء» ومن ذلك قوله تعالى حكاية عن إخوة يوسف عليه السلام : ﴿ قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأۡمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ ﴾ (يوسف:١١) .

وقوله تعالى : ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٖ مِّن رِّجَالِكُمۡ ﴾ (الأحزاب:٤٠) .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ﴾ (الأنعام:٧٤) .

وهذا في حالة الإفراد ، وكذلك المواضع التي ورد فيها مجموعًا ، ومنها :

﴿ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ﴾ (البقرة:١٧٠) .

---

(١) البيان والتبيين للجاحظ : ٤٣/١ .

وقوله : ﴿ بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴾ (الزخرف:٢٢) .

وقوله : ﴿ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾ (الزخرف:٢٤) .

وقوله:﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ۝١٦ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴾ (الصافات:١٦،١٧) .

وقوله : ﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴾ (يس:٦) .. وغير ذلك كثير .

إذن فكلمة «الأب» هي الأداة المفضَّلة في أسلوب القرآن للدلالة على الذكر أو الذكور ، المولود لهم .

أما كلمة «الوالد» فلم تُطلق على الذكر المولود له إلا مندرجًا مع الأم «الوالدة» ، والقرآن يسلك هذا المسلك في مقام الإحسان إليهما ، وصنع المعروف معهما ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ ﴾ (لقمان:١٤) .

وقوله : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾ (الإسراء:٢٣).

وقوله : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ (البقرة:١٨٠) .

فالأب ـ هنا ـ والد على أسلوب التغليب ، لأن الوالد الحقيقي هي الأم .

وحفاظًا على هذه الدقة في اللفظ القرآني ، نرى القرآن عندما استدعى المقام معنى «الولادة» لكونه سببًا في حكم شرعي نراه ـ أي القرآن ـ قد عدل عن اسم الفاعل : «والد» إلى اسم المفعول : «مولود له» فقال : ﴿ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ﴾ (البقرة:٢٣٣) .

● **ملحظان هامان :**

وهذه الآية تفيدنا من ناحيتين :

أولاهما : أن القرآن أتى باسم المفعول مكنيًّا به عن الأب على وجه الحقيقة لأن الأب مولود له حقيقة ، وليس بوالد ، وذلك في موضعين منها : ﴿ **وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ** ﴾ . ثم : ﴿ **وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ** ﴾ .

ثانيتهما : أنه أتى باسم الفاعل المؤنث في الدلالة على الأم على وجه الحقيقة لأنها والدة فعلاً ، وذلك في موضعين منها كذلك : ﴿ **وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ** ﴾ . ثم : ﴿ **لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا** ﴾ .

فالأب في جميع الأحوال ليس والدًا ، وإنما هو مولود له ، وهذه لغة التنزيل التي تكاد تخلو من ظاهرة الترادف في هذه المواضع .

● **اعتراض مدفوع :**

ولا يقدح في هذه القاعدة قوله تعالى : ﴿ **لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا** ﴾ (لقمان:٣٣) ؛ لأن الوالد هنا ليس المراد به الأب وحده ، أو الأم وحدها ، فالسياق مقتض للعموم فهو قريب من أسلوب التغليب الذي أشرنا إليه ، حيث غلب فيه جانب الوالدية على المولودية .. فأطلق « الوالدان » عليهما .

● **والوالدة .. أب ؟!**

وإذا كان الأب « والدًا » على أسلوب التغليب ، فإن الوالدة ـ كذلك ـ أب على أسلوب التغليب .

قال تعالى : ﴿ **وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ** ﴾ (النساء:١١) .. أي أبوه وأمه .

وقال : ﴿ **وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ** ﴾ (يوسف:١٠٠) .. أي أبا يوسف وأمه عليهم السلام ، فهنا غلب جانب الذكورة على جانب الأنوثة فأجرى على الأم وصف « الأبوة » وسر هذا التغليب في الموضعين ـ فيما يبدو ـ أن تغليب

جانب الأنوثة في مقام الإحسان ملحوظ فيه ضعف الأنثى ، فهي بالإحسان أولى ... وللمعروف أهل ، وتغليب جانب الذكورة في جانب الإرث فلأن الأب الذكر أقوى من الأم لأنه عصبة الميت ، والذكر ـ غالبًا ـ حظه من الإرث مثل حظ الأنثيين .

● **سر التغليب :**

فالتغليب في كل من الموضعين جار على نسق حكيم ـ كما ترى ـ فصاحب الجانب الأقوى في المقام المسوق من أجله الكلام هو صاحب الجهة المغلبة المطوي معها الجانب الأضعف .

● **النعمة ليست نعيمًا :**

النعمة في القرآن خاصة بما أنعم الله به على عباده في الدنيا لا الآخرة .. سواء أكانت خيرًا ماديًّا كالمال والجاه والصحة ، أو هداية وإرشادًا إلى الصواب والتوفيق للعمل به ، وقد جاء بهذا المعنى في تسعة وأربعين موضعًا ، مضافة إلى الله ـ سبحانه ـ أو إلى ضميره أو مقطوعة عن تلك الإضافة لكنها منسوبة إلى الله بطريق آخر من طرق التعبير غير الإضافة .

ولنذكر بعض مواضعها مشيرين إلى ما بقي منها :

قال : ﴿ **ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ** ﴾ (البقرة:٤٠) ، وجاءت فيها في موضعين آخرين وهما آيتا (٤٧ – ١٢٢) .

وقال : ﴿ **رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ** ﴾

(النمل:١٩، الأحقاف:١٥) .

وقال : ﴿ **ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ** ﴾ (الأنفال:٥٣) .

وقال : ﴿ **كَمۡ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ۝٢٥ وَزُرُوعٖ وَمَقَامٖ كَرِيمٖ ۝٢٦ وَنَعۡمَةٖ كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ** ﴾ (الدخان:٢٥-٢٧) .

وقال : ﴿ وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً ﴾ (المزمل:١١).

وقال : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ (إبراهيم:٦).

وقال : ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ (إبراهيم:٣٤ ـ النحل:١٨).

وقال : ﴿ وَٱشْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ (النحل:١١٤).

هذه عشرة مواضع يستخدم فيها القرآن «النعمة» مرادًا بها ما أنعم الله به في الدنيا وهكذا في جميع مواضع استعمالات هذه الكلمة سواء أكانت مفتوحة النون ، أو مكسورتها .

والجمع فيها مثل المفرد ، قال : ﴿ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ (لقمان:٢٠).

وقال : ﴿ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ ﴾ (النحل:١١٢) .

وقال : ﴿ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (النحل:١٢١) .

وكذلك جاءت «نعماء» خاصة بالدنيا في آية هود : ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ ﴾ (هود:١٠) .

أما كلمة «النعيم» فقد اطرد القرآن استعمالها فيما أنعم الله به على عباده المقرَّبين في الآخرة دونما غيرها ونذكرها على وجه الاستقراء :

قال : ﴿ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴾ (التوبة:٢١) . وقال : ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴾(الطور:١٧). وقال : ﴿ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴾ (الواقعة:٨٩). وقال : ﴿ أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴾ (المعارج:٣٨). وقال : ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴾ (الانفطار:١٣). وقال : ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴾ (المطففين:٢٢) . وقال : ﴿ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴾ (المطففين:٢٤) . وقال : ﴿ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴾(الإنسان:٢٠). وقال : ﴿ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾

(المائدة:٦٥). وقال : ﴿ فِي جَنَّتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ (يونس:٩). وقال : ﴿ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي جَنَّتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ (الحج:٥٦) . وقال : ﴿ فِي جَنَّتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ (الصافات:٤٣) . وقال : ﴿ فِي جَنَّتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ (الواقعة:١٢) . وقال : ﴿ لَهُمْ جَنَّتُ ٱلنَّعِيمِ ﴾ (لقمان:٨) . وقال : ﴿ وَٱجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ (الشعراء:٨٥) . وقال : ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ (القلم:٣٤) . وقال : ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ (التكاثر:٨) .

لا خلاف بين المفسرين في المراد بـ «النعيم» في هذه المواضع ، إلا الموضع الأخير ، موضع التكاثر فقد ذهبوا يخصونه بنعم الدنيا وتأولوا ذلك على عدة وجوه .

● معنى النعيم في «التكاثر» :

فبعضهم يرى ـ كما يذكر الرازي في تفسيره[1] ـ أن المراد بالنعيم هو الرسول ﷺ ، وبعضهم يقول : هو تخفيف الشرائع ، أو هو صحة الأبدان ، أو هو الطعام والشراب ، وقد ذهب بعضهم أن المراد به النعلان اللذان يمشي بهما الإنسان ، ولعل هذا الرأي مبعثه أن الله يُحاسِب على جلائل النعم وصغائرها ، وأمام هذا الحشد الهائل من تعدد الآراء اختار الرازي أن يكون المراد به جميع ما أنعم الله به على الناس ، قال : «والأولى عندي أنه يجب حمله على جميع النعم ، وأن تكون الألف واللام فيه للاستغراق»[2].

وخصه الزمخشري بنعيم المترف الذي عكف نفسه على استيفاء اللذات ، ولم يعش إلا ليأكل ويشرب ويقطع أوقاته باللهو والطرب ، فأما مَن تمتع بنعم الله وأرزاقه التي لم يخلقها إلا لعباده وتقوى بها على دراسة العلم ، والقيام بالعمل ، وكان ناهضًا بالشكر ، فهو عن ذاك بمعزل[3] .

(١،٢) تفسير الفخر الرازي ٨/٤٧٤ .

(٣) تفسير الكشاف للزمخشري : ٤/٢٣١ .

والطبري يخصه كذلك بنعيم الدنيا قال : « ثم ليسألنكم الله عَزَّ وجَلَّ عن النعيم الذي كنتم فيه في الدنيا ماذا عملتم فيه ؟ ومن أين وصلتم إليه ؟ وفيم أصبتموه »[1] .

وأنا مع مَن يحمل المراد بالنعيم في آية التكاثر على نعيم الآخرة ، جريًا مع العُرف القرآني في استعمال هذه الكلمة على المنهج الذي شرحناه[2] .

ولكن ما معنى السؤال ـ حينئذ ـ عن نعيم الآخرة ؟

الذي يبدو وجيهًا في هذا السؤال « أنه سؤال توبيخ وحسرة » ، فقد كان مطلع السورة : ﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴾ (التكاثر:١،٢) ناعيًا على هؤلاء حظهم من الحياة الباقية ، حيث شغلوا أنفسهم بالدنيا ورأوا فيها كل متع الحياة ، ولم يفيقوا من ضلالهم حتى أنزلهم الموت قبورهم بعد أن ضيَّعوا على أنفسهم كل مسعى ناجح .

وحين يرى هؤلاء ما أعدَّه الله لعباده الطائعين من نعيم مقيم ، يسألهم الله عن النعيم الحق ، ما هو ؟

أهو ما يرونه أمامهم من جنات تجري من تحتها الأنهار ، وحور عين ، وولدان مخلدين ، فيها ما تشتهيه الأنفس وتقر به الأعين .

أم هو ما كانوا يحظون به في الحياة الدنيا من نعمة زائلة ، وعرض هالك .. أي النوعين أحرى أن يسمى نعيمًا .

● **مغزى السؤال :**

وهذا السؤال يحقق غرضين :

أولهما : بيان خطأ مسعاهم وضلال ما كانوا به يتمسكون .

وثانيهما : إدخال الحسرة عليهم حين يرون هذا النعيم الخالد وهم منه محرومون .

---

(١) تفسير الطبري : ١٨٤/٣٠ .

(٢) التفسير البياني ـ الدكتورة عائشة عبد الرحمن : ٢٠٥/١ .

وليس هذا التوجيه بغريب عن منهج القرآن ، أعني : سؤال الكفار للتقرير والتوبيخ فقد ورد في مواضع عدة مما سيكون يوم القيامة .

قال سبحانه : ﴿ ٱحْشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُواْ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴾ ؟ (الصافات:٢٢-٢٥) .

وقال موبخًا ومقررًا : ﴿ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴾ (الطور:١٤،١٥) ؟ .

● والمرأة .. ليست زوجًا[1] :

ومثل هذه الكلمات كلمة «امرأة» فإنَّ القرآن يستعملها في المواضع التي تفقد فيها الحياة الزوجية بعض مقوِّماتها ، سواء أكان ذلك من جانب الرجل ، أو من جانب المرأة ، ويؤثر كلمة «الزوج» متى استقامت تلك الحياة .

وكذلك إذا انفصمت عرى الزوجية بموت وما أشبه الموت ، ولنذكر النصوص الواردة في ذلك :

قال تعالى : ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا ﴾ (آل عمران:٣٥).

وقال : ﴿ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ ﴾ (النساء:١٢) .

وقال : ﴿ وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ ﴾ (النساء:١٢٨) .

وقال : ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ﴾ (يوسف:٣٠) .

وقال : ﴿ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ ﴾ (يوسف:٥١)

وقال : ﴿ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ ﴾ (النمل:٢٣)

---

(١) لم أثبت تاء التأنيث هنا تبعًا للغة القرآن الحكيم .

وقال : ﴿ وَقَالَتِ ٱمۡرَأَتُ فِرۡعَوۡنَ قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَ ﴾ (القصص:٩)

وقال : ﴿ وَٱمۡرَأَةً مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ ﴾ (الأحزاب:٥٠)

وقال : ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ وَٱمۡرَأَتَ لُوطٖۖ كَانَتَا تَحۡتَ عَبۡدَيۡنِ مِنۡ عِبَادِنَا صَٰلِحَيۡنِ فَخَانَتَاهُمَا ﴾ (التحريم:١٠)

وقال : ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمۡرَأَتَ فِرۡعَوۡنَ ﴾ (التحريم:١١)

وقال : ﴿ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمۡ ﴾ (هود:٨١)

وقال : ﴿ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهۡلَكَ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴾ (العنكبوت:٣٣)

وقال : ﴿ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴾ (الأعراف:٨٣)

وقال : ﴿ وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ ﴾ (هود:٧١)

وقال : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِي ٱشۡتَرَىٰهُ مِن مِّصۡرَ لِٱمۡرَأَتِهِۦٓ أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ ﴾ (يوسف:٢١)

وقال : ﴿ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ قَدَّرۡنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴾ (الحجر:٦٠)

وقال : ﴿ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴾ (العنكبوت:٣٢)

وقال : ﴿ فَأَقۡبَلَتِ ٱمۡرَأَتُهُۥ فِي صَرَّةٖ فَصَكَّتۡ وَجۡهَهَا وَقَالَتۡ عَجُوزٌ عَقِيمٞ ﴾ (الذاريات:٢٩)

وقال : ﴿ وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ ۝ فِي جِيدِهَا حَبۡلٞ مِّن مَّسَدِۭ ﴾ (المسد:٤،٥)

وقال : ﴿ وَقَدۡ بَلَغَنِيَ ٱلۡكِبَرُ وَٱمۡرَأَتِي عَاقِرٞ ﴾ (آل عمران:٤٠)

وقال : ﴿ وَإِنِّي خِفۡتُ ٱلۡمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا ﴾ (مريم:٥)

وقال : ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا ﴾ (مريم:٨)

وقال : ﴿ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ ﴾ (البقرة:٢٨٢)

وقال : ﴿ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ﴾ (القصص:٢٣)

● **استعمال كلمة «المرأة» :**

هذه مواضع استعمال هذه الكلمة في القرآن الكريم ، وقد سبق لنا القول بأن القرآن يؤثر استعمالها إذا فقدت الحياة الزوجية بعض مقوِّماتها ، أو مقوِّماتها كلها ، وهذه الآيات يمكن تصنيفها من حيث الأساس الذي بيَّناه إلى المجموعات الآتية :

الأولى : أن يُفرِّق الموت بين الزوجين كما في آية «امرأة عمران» لأن قولها : ﴿ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا ﴾ كان بعد موت زوجها عمران[1].

الثانية : ألا يكون للمرأة زوج أصلاً ، كما في قصة بلقيس وبنتي شعيب وذلك واضح .

الثالثة : أن يكون العُقم هو الملاحَظ في الحديث ، كما في امرأة العزيز وامرأة زكريا عليه السلام .

الرابعة : أن يكون الاختلاف في الدين هو السبب الداعي إلى عدم اعتبار الحياة الزوجية قائمة من كل الوجوه كامرأة نوح وامرأة لوط وامرأة فرعون .

الخامسة : أن تكون الخلافات الزوجية هي السبب وهي في قوله تعالى : ﴿ وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا ﴾ .

السادسة : أن يكون الحديث عنها ليس باعتبارها زوجة لأحد ، بل باعتبار حقيقتها المقابلة لحقيقة الرجل ، مثل : ﴿ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ ﴾ .

---

(١) انظر : تفسير الكشاف للزمخشري : ٢٧٢/١ .

السابعة : أن يكون الزوجان ممن يحادون الله ورسوله ، فكأن القرآن ـ هنا ـ يعتبر الروابط الزوجية غير قائمة بينهما ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ ﴾ .

● **شُبهة وردها :**

هذه طريقة القرآن في استعمال كلمة «امرأة» .. لكن الباحث قد يعثر في آيات الكتاب على استعمال كلمة «زوج» مكان «امرأة»، مع وجودها ما يهدد الروابط الزوجية أو يفيد عدم قيامها مثل قوله تعالى : ﴿ أَمۡسِكۡ عَلَيۡكَ زَوۡجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ ﴾ (الأحزاب:٣٧) .

ومثل قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوۡنَ مِنكُمۡ وَيَذَرُونَ أَزۡوَٰجٗا ﴾ (البقرة:٢٣٤) .

وقوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ وَأُسَرِّحۡكُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ﴾ (الأحزاب:٢٨).

فيقع في الظن أنَّ كلمة «امرأة» لا تُستعمل إلا في المواضع التي يعتري الزوجية فيها خلاف أو سبب مما ذكرناه .

أما «زوج» فتستعمل في الموضعين جميعًا .

والذي أراه أنَّ هذا الاحتمال مدفوع لإمكان توجيه النصوص المخالفة على وجوه تطرد بها القاعدة .

ففي نصح الرسول عليه السلام لزيد حين دَبَّ الخلاف بينه وبين زينب كَرِهَ الرسول ذلك الخلاف واعتبره كأن لم يكن ونصحه بالتمسك بها ، وما دمنا قد عرفنا طريقة القرآن في استعمال كلمة «امرأة» فإنه لا يسوغ فيه أن يقال : «أمسك عليك امرأتك» لما بين هاتين الكلمتين : «أمسك» و«امرأة» من جفاء .

وأما قوله تعالى : ﴿ وَيَذَرُونَ أَزۡوَٰجٗا ﴾ فذلك في مقام «الجمع» وحديثنا في مقام الإفراد وإنما أوثر جمع «زوج» على جمع «امرأة» لأن الثانية «امرأة»

لم يستعمل لها جمع لثقله ، وبهذا تطرد القاعدة ، وتأكيدًا لهذه الاعتبارات نسوق قوله تعالى : ﴿ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴾ (الأنبياء:٨٩،٩٠) .

والشاهد أن امرأة زكريا حين أصبحت صالحة للإنجاب آثر القرآن أن يطلق عليها «زوجه» دون «امرأته» وكانت «امرأة» إذ كانت «عاقرًا» .

● **استعمال كلمة «زوج» :**

ولعل السر البياني في كل أولئك أن ضَنَّ القرآن بكلمة «زوج» في المقامات التي يسود فيها الحياة الزوجية ما يجعلها قليلة الإثمار لأن هذه الكلمة نفسها تدل على «الزوجية» لأنها ما سميت زوجًا إلا مضافًا إليها الرجل وما سمى الرجل زوجًا إلا مضافة إليه هي[1] ، ودبيب الخلاف ينافي هذا الاعتبار .

أما «امرأة» فهي خالية من تلك الدلالة إذ هي إطلاق عليها باعتبار حقيقتها المقابلة لحقيقة الرجل .

٤- النغم القرآني :

تقدَّم الحديث عن هذه الخاصة متفرقًا في ثنايا الموضوعات السابقة ولا سيما في بحث الفواصل ، وما نذكره الآن وصف عام لأسلوب القرآن الكريم ، من حيث موسيقاه ونغمه الصوتي ، وهي خاصة فريدة لم يُشركه فيها غيره على الإطلاق ، وهذه الخاصة أتاحت قراءة القرآن مرتلاً مجوَّدًا .

---

(١) من محاضرة مرتجلة ألقاها فتح الله بن بدران بجمعية الشبان المسلمين منذ عشر سنين .

● **دعائم النغم القرآني :**

وقد ساعد على روعة النغم القرآني ـ أو الإيقاع الصوتي لألفاظه ـ عوامل أهمها :

أولاً : فواتح سوره ، مثل : ﴿ الٓمٓ ﴾ ومثل : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ ومثل : ﴿ حمٓ ﴾ ومثل : ﴿ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ ﴾ .

ثانيًا : فواصل الآيات ، مثل : ﴿ يَعۡلَمُونَ ﴾ ومثل : ﴿ يُؤۡمِنُونَ ﴾ ، ﴿ عَصِيًّا ﴾ ومثل : ﴿ نَجِيًّا ﴾ ومثل : ﴿ مُّنۢبَثًّا ﴾ و﴿ ثَلَٰثَةٌ ﴾ .

ثالثًا : أدب تلاوته من مد وإدغام وغن وقلقلة ووصل ووقف وإظهار وإخفاء وتفخيم وترقيق ... إلخ .

رابعًا : بناء جملة بناءً موسيقيًّا شجيًّا من تقابل بين الكلمات ، وتساو بينها في الحروف ، مثل : ﴿ عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ ۝٢ ٱلَّذِي هُمۡ فِيهِ مُخۡتَلِفُونَ ﴾ (النبأ:١-٣) .

فبين كل كلمة وأخرى تقابل موسيقى في عدد الكلمات والحروف والحركات .

خامسًا : والعبارات تتألف من جُمل ليست مرسلة تمامًا ، ولا مسجوعة تمامًا .

إذ ليس في آخرها قرائن ولا تخلو من التقسيم الذي يشبه جُمل السجع[1]،

وهذا البناء الفريد لكلمات وجُمل القرآن وفقره وسوره ، جعله يمتاز بخاصة سما بها فوق النثر الفني ، والكلام المنظوم ، فليس هو بواحد منهما : ليس شِعرًا لأنه ليس على مناهج الشِّعر من بحور وتفاعيل وعلل وزخارف ، وليس نثرًا مما اعتاد الناس حذقه لأنه يباين طرقهم في التعبير وأخذهم في فنون القول ، والنثر وإن اشترك معه في بعض المظاهر كالسجع والإرسال فإنه دونه بمراحل .

---

(١) محاضرات في الأدب الإسلامي والأموي ـ دكتور سليمان حسن ربيع ص ٢٤ .

● **أثر هذه الخصائص في التسمية :**

وهذه الخصائص جعلت الدكتور طه حسين يعد القرآن ، نمطًا ثالثًا فوق الشِّعر وفوق النثر[1] ، فهو « قرآن » .

فإطلاق هذه اللفظة عليه : « قرآن » كاف في تحديده عما سواه ، وتمييزه من فنون القول الأخرى ، وهذا نصه : « إنَّ القرآن ليس نثرًا ، كما إنه ليس شِعرًا ، إنما هو قرآن ولا يمكن أن يسمى بغير هذا الاسم ، ليس شِعرًا ، وهذا واضح فهو لم يتقيد بقيود الشِّعر ، وليس نثرًا لأنه مقيَّد بقيود خاصة به ، لا توجد في غيره ، وهي القيود التي يتصل بعضها بأواخر الآيات وبعضها بتلك النغمة الموسيقية الخاصة ، فهو ليس شِعرًا ولا نثرًا ، ولكنه : ﴿ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ (هود: ١) [2] .

وأجدني ميالاً لهذا المذهب الذي يراه الدكتور طه حسين ، ويمكن أن نسجل ـ هنا ـ فارقًا آخر بين النثر والقرآن .

● **فرق جديد بين القرآن وغيره :**

الأدب ـ عمومًا ـ متأثر بظروف البيئة السياسية والاجتماعية والفكرية التي قيل فيها ، وعاش صاحبه أحداثها ، ولذلك فأنت ترى لأدب كل عصر خصائصه ومميزاته .

وإذا عرف الباحث خصائص أدب كل عصر ، استطاع أن يرجع كل ما يقع تحت بصره من نصوص مجهولة القائل والعصر إلى عصرها .

أما القرآن الكريم فإنه ـ بمادته وفكره ، وألفاظه وأسلوبه ـ لا يمثل عصرًا من عصور الأدب تأثر بها ، واقتبس منها ، ودار في فلكها ، بل هو سام في كل عصر بما له من خصائص وسمات .

(١، ٢) من حديث الشعر والنثر ـ دكتور طه حسين ص ٢٥ .

obeikan.com

ويختص القرآن الكريم بأنَّ له إيقاعًا صوتيًّا فريدًا سواء المرسل منه والمسجوع ، وقد يدق الوزن ـ أحيانًا ـ حتى يشبه الشِّعر ، وما هو بِشعر ، في بعض أعاريضه وأضربه وفي بحوره المعروفة .

● **مجيئه على تفاعيل الشعر في الظاهر :**

ومن ذلك : ﴿ **وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ** ﴾ (سبأ:١٣) .. فقد جاءت هذه الآية على نظام بحر الرمل وتفاعيله :

فـــاعلاتن فـــاعلاتن فـــاعلاتن فـــاعلاتن فـــاعلاتن فـــاعلاتن

فإذا جاز لنا أن نُقطِّع الآية تقطيعًا عروضيًّا ، وجدنا تفاعيلها على النحو الآتي :

فعلاتـــن فـــاعلاتن فعلاتـــن فـــاعلاتن

فهي ـ إذن ـ على غرار مجزوء الرمل ، لحذف إحدى تفاعيله من كل شطر .

كما نرى أنَّ التفعيلة الأولى حُذِفَ منها الحرف الثاني الساكن ، ويسمى هذا « خبنًا » ، ونلاحظ أنَّ التفعيلة الأولى فيما أشبه الشطرين تساوتا في الحذف الذي سُمِيَ خبنًا في عُرف العروضين أما التفعيلتان الباقيتان فقد سلمتا من جميع ما أطلقوا عليه زحافًا أو عِللاً (*).

وبهذا قابلت « جفان » : « قدور » من حيث الوحدات الصوتية فيهما ، وقابلت « كالجواب » : « راسيات » فيها كذلك .

ومن ذلك أيضًا : ﴿ **وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ** ﴾ (فاطر:١٨) .. فقد جاء على مجزوء الخفيف ، وتفاعيله كاملاً :

فـــاعلاتن مســـتفع لـــن فـــاعلاتن فـــاعلاتن مســـتفع لـــن فـــاعلاتن

أما مجزوؤه فيصبح :

فـــاعلاتن مســـتفع لـــن فـــاعلاتن مســـتفع لـــن

(*) مرجعي في إثبات التفاعيل كتاب : أهدى سبيل ـ للمرحوم محمود مصطفى .

هذا باعتبار سلامته من الزحافات والعلل ، وتفاعيل الآية كالآتي :

فـــاعلاتن متفـــع لـــن فعلاتـــن متفـــع لـــن

ومنه أيضًا قوله تعالى : ﴿ **وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ** ﴾ (التوبة:١٤).

فقد وزنوه على بحر الوافر ، وتفاعيله :

مفـــاعلتن مفـــاعلتن مفـــاعلتن مفـــاعلتن

فقد تساوت فيه التفعليتان الثانية والثالثة في الجزء الأول مع نظيرتيهما في الجزء الثاني .

واختلفت الأولى في الجزء الأول مع الأولى في الجزء الثاني حيث جاءت الثانية سليمة من الحذف والإسكان واعترى الأولى بعض ذلك .

كما وزنوا قوله سبحانه : ﴿ **وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُ** ﴾ (الطلاق:٢،٣) . ونسبوه إلى بحر المتقارب .

وقوله تعالى : ﴿ **هَيۡهَاتَ هَيۡهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ** ﴾ (المؤمنون:٣٦) وقالوا : إنه على غرار بحر السريع[1] .

ومما أشبه الشعر أيضًا قوله تعالى : ﴿ **لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ** ﴾ (آل عمران:٩٢) .

وبدهي أنَّ موافقة هذه الآيات لبعض أوزان الشِّعر لا تُسوِّغ إطلاق كلمة الشِّعر عليه ولا المواضع التي جاء الشبه فيها ، لأنَّ الشِّعر لابد من قصد الوزن فيه والقافية والقرآن فوق ذلك .

• النغم القرآني عند المحدَثين :

وقد سطر المرحوم محمد عبد الله دراز في كتابه «النبأ العظيم» فقرات جد رائعة في هذا المجال من الخير أن نجتزئ ما تيسر منها :

---

(١) ورد هذا في كثير من كتب المحدَثين مثل : «التفكير فريضة إسلامية للعقاد ص ١١٤، ومن بلاغة القرآن : للدكتور أحمد أحمد بدوي ص ٢٤٥ .

قال[1] : « دع القارئ المجود يقرأ القرآن يرتله حق ترتيله نازلاً بنفسه على هوى القرآن وليس نازلاً بالقرآن على هوى نفسه ، ثم انتبذ منه مكانًا قصيًّا[2] لا تسمع فيه جرس حروفه ولكن تسمع حركاتها وسكناتها ، ومداتها وغناتها ، واتصالاتها وسكناتها ، ثم ألق سمعك إلى هذه المجموعة الصوتية ، وقد جُرِّدت تجريدًا ، وأرسلت ساذجة في الهواء ، فستجد نفسك منها بإزاء لحن غريب عجيب لا تجده في كلام آخر لوجود هذا التجويد » .

وقال : « لا عجب إذن أن يكون أدنى الألقاب إلى القرآن في خيال العرب أنه شِعر لأنها وجدت في توقيعه هزة لا تجد شيئًا منها إلا في الشِّعر ، ولا عجب أن ترجع إلى نفسها فتقول : ما هو بشعر ، لأنه ـ كما قال الوليد ـ ليس على أعاريض الشعر في رجزه ولا في قصيده .. ثم لا عجب أن تجعل مرد هذه الحيرة أخيرًا إلى أنه ضرب من السحر لأنه جمع بين طرفي الإطلاق والتقييد في حد وسط ، فكان لها من النثر جلالته وروعته ، ومن الشِّعر جماله ورونقه »[3] .

هذا كلام حق ، ووصف دقيق يمسه كل عاقل متأمل في كتاب الله ، وقد أثار الكاتب في الجزء الأخير الذي نقلناه عنه قضية لها خطورتها في مجال بحثنا هذا .

• مطاعنهم في القرآن .. مبعثها الإعجاب :

وهي أن العرب الذين لم يستجيبوا لدعوة الإسلام ، وعارضوا الدعوة وصاحبها عليه السلام حين تلمَّسوا وجوه الطعن في القرآن الكريم لم يخرجوا عن كونه أساطير الأوَّلين ... أو سحرًا يؤثر ، أو رِئيًا من الجن ، أو هو شِعر ، وقالوا مرة : إنما يُعلِّمه بَشر .

---

(١) النبأ العظيم ، الدكتور محمد عبد الله دراز ص ٩٥ .

(٢) هي في الأصل : « قسيًّا » ، والصحيح ما ذكرناه .

(٣) النبأ العظيم ، الدكتور محمد عبد الله دراز ص ٩٧ .

وهذه النسب ـ كما زعموا ـ إنما صاروا إليها لأنهم وجدوا في القرآن عِزَّة وغرابة فقالوا : إنه سحر أو أساطير الأوَّلين ، والسحر ـ كما هو معروف ـ يُنسب إليه ما لا تجري به العادة فدلت هذه النسبة على أنهم كانوا يرون أنفسهم دونه ، أما الغرابة التي أحسوها فيه فهي تتمثل في نسبته إلى أساطير الأوَّلين ، والأسطورة ذات دلالة غنية من أجلها تتناقلها الأجيال ، وما زال العُرف يطلق كلمة أسطورة على كل غريب خارق ، أما نسبته إلى الجن فهم كانوا يعتقدون أن للإجادة في فن القول شيطانًا ملهمًا ، وهذا يفسر لنا ـ أيضًا ـ إحساسهم القوي بسمو القرآن وبلوغه حدًّا في الإعجاز جفَّت دونه الأقلام .

وحتى عندما سوَّلت لهم أنفسهم أن ينسبوا تعليمه ـ عليه السلام ـ إلى بَشر .. نسبوه إلى مَن هو خارج عن بيئتهم ، بدليل رد القرآن عليهم :

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾ (النحل:١٠٣) .

● **لماذا سموه شِعرًا :**

إنهم حين نسبوه إلى فن من فنونهم لم يتجاوزوا به حد الشِّعر ، فلم يقولوا إنه خطب ولا نثر مسجوع كسجع الكهان ، لم يقولوا شيئًا من ذلك ، وإنما قالوا هو شِعر .

والعِلَّة واضحة هي لما لمسوه فيه من إيقاع موسيقي شجي ، ونغم صوتي ساحر يحسونه ويتذوقونه ويسجدون إعجابًا به بينهم وبين أنفسهم وإن عاندوا وكابروا ظاهرًا .

وللشِّعر في دولتهم دولة ، وفي حياتهم حياة ، وهذه النسبة ـ كذلك ـ ترينا ـ أحبوا أم كرهوا ـ ما للقرآن عندهم وفي قرارة أنفسهم من منزلة صغروا أمامها ، ونبأت طعونهم عنها من حيث لا يشعرون .

والخلاصة ... أن قريشًا حين أرادت أن تنفي عن القرآن كونه وحيًا من عند الله لم تنسبه إلا إلى ما تدين له أنفسهم بالولاء لأنه فوق الطاقة بعِزَّته وغرابته ، وما من شأنه أن يستولى على شعور الناس ويأسر ألبابهم .

● **خاصتان بارزتان :**

في القرآن خاصتان صوتيتان بارزتان ، هما : الإطلاق والتقييد ، أو الإرسال من القيود والتسجيع ، في القرآن إرسال ، وفيه سجع ، ولا يتنافى هذا مع جلال القرآن وإعجازه .

لأن إطلاقه لم يأت إلا فيه ، وسجعه ـ كذلك ـ فريد لم يحظ بشرفه غيره ، هما مخالفان لما يتناوله الناس من قول .

القرآن يلتزم حروف السجع في أكثر من موضعين متجاورين ، وهو أدنى حد للسجع وقد يأتي بالسورة كلها مسجوعة على حرف واحد .

خذ ـ مثلاً ـ سورة القمر ، تجد أنها مسجوعة على حرف الراء من أول آية فيها حتى آخر آية .

﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ۝٣ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝٤ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴾ (القمر:١-٥) .

وقد جاءت في سورة «عبس» عشر آيات مسجوعة على حرف واحد هو «الألف» كما لازم حرف السجع فيها قصر الآيات وجزالة الألفاظ ، لأن المقام مقام عتاب وتوجيه .

● **النغم في الآيات القصار :**

وتزداد ظاهرة الإيقاع الصوتي في القرآن وضوحًا إذا قصرت الآيات وكان السجع ملحوظًا في فواصلها ، وقد تفصل جمل السجع بجملة غير مسجوعة ، أو جمل .

ويلحظ الباحث ـ أحيانًا ـ في الجملة غير المسجوعة التي توسطت جملاً مسجوعة معنى خاصًا أبرزها في ذلك المظهر الفريد بين أخوات لها وأشباه .

ولننظر في النص الآتي من سورة عبس :

﴿ قُتِلَ ٱلْإِنسَـٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَـٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَـٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَـٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَـٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴾ (عبس:١٧-٤٢).

في هذا النص الحكيم جاءت كلمة «طعامه» فاصلة بين مجموعتين من الآيات ، الأولى مسجوعة على حرف واحد هو الهاء ، والأخرى مسجوعة على الألف ، وحرف السجع في النوعين قد يلتزم معه حرف آخر يزيد به الإيقاع وضوحًا ، والنظر في النص كاف لإدراك هذا الملحظ .

كذلك فإن كلمات السجع قد تتساوى في الوزن من حيث عدد الحروف والحركات والسكنات ، ولعل السر في الفصل بين هاتين المجموعتين المسجوعتين بالفاصلة «طعامه» مع آيتها لأن هذه الآية رأس موضوع جديد وإجمال مشوق أعقبه تفصيل حكيم : ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴾ ؟

هذه إثارة وتهيئة للشعور حتى يخلو من كل شاغل يلهيه عن تقرير واستيعاب شرح هذه الفكرة .

● مراحل إعداد الطعام :

وقد صدرت هذه الإثارة بلام الأمر ولفت الأنظار لفتًا قويًّا إلى الطعام الذي هو عند الإنسان قوام حياته وضمان أمنه وعدة مستقبله .

فهـذا التبـاين في المعنـى حمـل ـ والله أعلـم ـ علـى التبـاين في اللفـظ ، ثـم جاءت الآيات تترى واحدة إثر أخرى تبين مراحل إعداد الطعام .

بادئة بالمرحلة الأم : ﴿ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴾ والتعبير بـ «الصب» موح بكثرة الماء النازل من السماء لتحيا به الأرض وتنبت من كل زوج بهيج .

ثم ثنَّت بالمرحلة الثانية : ﴿ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴾ والتعبير بحرف العطف «ثم» دون غيره من حروف العطف صنع حكيم ، لأن انشقاق الأرض بالنبات لا يكون عقب صب الماء مباشرة بل هناك زمن فاصل بين المرحلتين فجاءت «ثم» لإفادة الترتيب مع التراخي اللازم .

ثم كانت المرحلة الثالثة : ﴿ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴾ وبين هذه المراحل الثلاث ترتيب في الوجود كما رتبت في الأسلوب .

ولما كان إنبات الحَب وما أشبه يُرى إثر انشقاق الأرض لأنها لا تنشق إلا به ، وكان الفاصل بينهما دقيقًا إلى درجة التلازم في الوجود جاء حرف العطف «الفاء» المفيد للتعقيب مع الترتيب ، وبهذا تنتهي مراحل إعداد الطعام الثلاث .

ولما كان العطف فيما بقي ليس عطف مرحلة على مرحلة ، وإنما عطف جزء من المرحلة ـ الأخيرة ـ على جزء آخر منها ، وهذه الأجزاء لا يتصور فيها سابق ولا لاحق بل قد تنبت متصاحبة أو متفرقة دون أن يكون لتفرقها في الإنبات دور وعظي تؤديه ، لهذه الاعتبارات كلها كان حرف العطف «الواو» إذ هي أليق بالمقام لأنها لا تفيد ترتيبًا ولا تعقيبًا ولا تراخيًا ، بل هي ـ كما هو معلوم ـ لمجرد العطف .

وفي تقديم الحَب على النِّعَم المذكورة فيه ، وجعله أصلاً صالحًا للعطف عليه سر دقيق ، ذلك لأن الحَب يُصنع منه الخبز وهو أهم ما يعتمد عليه الإنسان في حياته وحفظها ، أما الأخرى فهي نعم ـ وإن كان لها دور كبير في حياة الإنسان ـ فإنها دونه .

وكما خولف في فاصلة رأس الموضوع : ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴾ خولف ـ كذلك ـ في نهايته : ﴿ مَّتَـٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَـٰمِكُمْ ﴾ .

● **مشاهد مطوية :**

وانتهت مراحل إعداد الطعام عند هذا الحد ، ولم يدخل فيها جمع الزرع وحصده ... ودرسه وتذريته ثم طحنه وخبزه .

وهذه خطوات سابقة ضرورة لانتفاع الإنسان بما يطعم ، لكن القرآن طوى ذكرها ولم يتعرض لها .

والسر : أن هذه الخطوات إنما يقوم بها الإنسان نفسه ، وليست من مراحل التكوين بل هي مراحل ثانوية مختصة بتهيئة « الذوات » بعد تكوينها وإيجادها وغرضها إدخال صفات عليها تجعلها قابلة للانتفاع بها في مراحلها النهائية .

وبعد هذا البيان الراشد ، نجد أنفسنا أمام رأس موضوع آخر ، وإجمال أعقبه تفصيل كذلك .

● **مشهد أخروي مثير :**

﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴾ وقد صنع بفاصلته كما صنع بفاصلة رأس الموضوع السابق ، فجاءت مخالفة لما سبق وما لحق .

ثم سلك القرآن في تفصيله وبيانه ، مثل ما سلك في تفصيل وبيان رأس الموضوع السابق .

آيات كاشفة ذات وزن متحد ـ تقريبًا ـ وفواصل متحدة موزونة زنة واحدة كذلك ، وقد جاء هذا التفصيل في مجموعتين من الآيات ، كل منهما تُصوِّر جانبًا خاصًّا .

المجموعة الأولى : تتحدث عما ينتاب الناس ـ جميعًا ـ من أهوال تزول تحت وطأتها الروابط الوثيقة التي كانت بينهم في الحياة الدنيا .

والمجموعة الثانية : تتحدث عن صفات الفريقين التي سيصير إليها الناس ، حسب ما قدَّموه من أعمال : صالحين ، وطالحين .

وقد اختصت كل من المجموعتين بفاصلة خاصة ، الأولى كانت فاصلتها « هاء المفرد الغائب» تالية لحرف مد « الياء» وهي : « أخيه ـ أبيه ـ بنيه ـ يغنيه» .

والثانية جاءت فاصلتها « التاء المربوطة» تالية للراء المفتوحة ، وهي : « مسفرة ـ مستبشرة ـ غبرة ـ قترة ـ الكفرة» .

فانظر لهذه السياسة الحكيمة في بناء الأسلوب ، والملاءمة التامة بين ألفاظه ومعانيه وتوزيع الحركات والسكنات على نهج فريد ، « يُدرَك بالذوق والحس ، ولا تحده الرسوم ولا الضوابط» .

● **هندسة الجمل :**

وقد تكون الجملتان المسجوعتان متوازنتين في القصر ، كما في مطلع سورة « التكوير» : ﴿ **إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ** ﴾ (التكوير: ١-٤) .

وكما في مطلع سورة « الواقعة» : ﴿ **إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝٣ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ۝٤ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝٥ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ۝٦ وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَٰثَةً** ﴾ (الواقعة: ١-٧) .

وقد يكون التوازن بينهما في الطول ، ومرسلتان في ما عدا الفواصل ، وهما في إرسالهما مخالفتان لمرسل الناس لوجود الفاصلة المتحدة أو المتماثلة في آخرها ، ومن هذا النوع أغلب آي القرآن الكريم .

● **ثلاث فواصل متحدة :**

ومنه مثلاً قوله تعالى : ﴿ **ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦٤ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦٥ ۞ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ**

﴿ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِيَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (غافر:٦٤-٦٦) .

هذه ثلاث آيات اتحدت فواصلها فجاءت كلمة واحدة : ﴿ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ ومع هذا التكرار في الفاصلة لم تحس في التعبير إلا جمالاً وجدة خرج معها التكرار مخرج الجودة والحسن .

نعم .. الفاصلة متحدة لفظًا ومعنى في المواضع الثلاثة ، ولكن ما قبل الفاصلة مختلف من موضع إلى آخر .

ففي الآية الأولى جاءت : ﴿ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ بدلاً ، أو صفة لاسم الجلالة ، وهي على كلا الاحتمالين مرفوعة الصدر .

وفي الموضع الثاني جاءت مجرورة عليهما أيضًا ، وكذلك في الموضع الثالث ، هذا من حيث ضبطها في اللفظ .

وأما من حيث تعلقها مع ما جاءت بدلاً منه أو صفة له ، ففيه سر آسر .

في الأولى : ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ .

وفي الثانية : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ .

وفي الثالثة : ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ .

والمتأمل يجد بين المواضع الثلاثة تسلسلاً مرتبًا ترتيب المسبب على السبب فالتبارك مستوجب للحمد ومَن تحقق له هذان الغرضان وشعر بعظمة الله وفضائله وحمده عليه وجب أن يسلم له ويخضع لإرادته ، وهذا التغاير في المعنى هو موطن السر في خفة روح التكرار فيه وخلابة أثره لفظًا ومعنى .

وهذه الجدة في المواضع الثلاثة وقفت أمام كثير من الأهواء الزائفة التي تتخذ من صور التكرار في القرآن وجوهًا للطعن فيه ، ونحن نعلم أن التكرار غير المفصول بين مواضعه بفاصل طويل ، يعد عيبًا من عيوب القافية ، وقد سماه العروضيون «الإيطاء» ، لكن هذا العيب لا مفهوم له هنا على رغم

ما هو وجيه هناك ، لأن التصرف في الشكل إذا تطلبه المعنى كان بعيدًا عن كل نقد .

وقد جاء هذا التكرار في الفاصلة في سورة البقرة في ثلاث آيات متتابعة هي :

﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾

(البقرة:١٠١-١٠٣) .

وإن كان لابد من كلمة ـ هنا ـ فإننا نلاحظ :

أولاً : أن ﴿ يَعْلَمُونَ ﴾ في الآية الأولى واقعة في حيِّز النفي من حيث الظاهر وإلا فالمقام مقام إثبات إذ هم يعلمون ، وإنما شبَّه حالهم لكونهم قد صدر منهم فعل لا يصدر إلا ممن لا يعلم ـ وهو نبذهم كتاب الله وراء ظهورهم ـ بحال مَن لا يعلم وفي الواقع هم عالمون ، فنزل علمهم حيث لم ينتفعوا به منزلة الجهل .

ثانيًا : أن الآية الثانية قد طالت بحيث لا يظهر مع طولها تكرار الفاصلة مع ما قبلها ـ هذا من جهة ، ومن جهة ثانية فإن لفظ «العلم» قد تكرر فيها مرات ، لكنه يتردد بين الممدوح والمذموم كتعلم السحر ، ثم ذكر لفظ ، «العلم» قبل الفاصلة ليمهد للحكم عليهم فقال : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ

﴿ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ .

وكون الفاصلة هنا ـ كذلك ـ مسلك اقتضته البلاغة ، ودعا إليه المعنى توبيخًا لهم وإظهارًا لحقارة ما تعلَّموه من فن السحر والأباطيل .

وجاءت الفاصلة في الآية الثالثة مماثلة للثانية تمامًا : ﴿ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ لأن الآية الثالثة تأكيد لما جاء في عجز الثانية ، لذلك اتحدتا في الفاصلة .

وهذا ـ كما سبق ـ أمر اقتضاه المعنى في المواضع الثلاثة ، وهذا شرط حسنها والحرص على الإتيان بها متماثلة .

● مغزى الفاصلة معنوي أولاً :

قال الزمخشري في كشافه القديم : « إنه لا تحسن المحافظة على الفواصل لمجردها إلا مع بقاء المعاني على سدادها على المنهج الذي يقتضيه حسن النظم والتئامه ـ كما لا يحسن تخير اللفظ المونق في السمع ، السلس على اللسان إلا مع مجيئه منقاداً للمعاني الصحيحة المنتظمة ، فأما أن تهمل المعاني ويهتم بتحسين اللفظ وحده ، غير منظور فيه إلى مؤداه على بال ، فليس من البلاغة في فتيل أو نقير ، ومع ذلك يكون قوله : ﴿ وَبِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ (البقرة:٤) ، وقوله : ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ (البقرة:٣) لا يتأتى فيه ترك التناسب في العطف بين الجمل الفعلية إيثاراً للفاصلة لأن ذلك أمر لفظي لا طائل تحته ، إنما هذا إلى قصد الاختصاص »[1].

● شمس الدين ابن الحنفي ، والفواصل القرآنية :

ولما كانت الفواصل تؤدي دوراً مهمًّا في الإيقاع الصوتي في القرآن الكريم ، إلى جانب دورها المهم في تأكيد المعاني وإيضاحه فقد سلك بها

(١) البرهان في علوم القرآن للزركشي : ٧٢/١ (بتصرف يسير) .

مسلك خاص ، وقد جمع شمس الدين ابن الحنفي أربعين ملحظًا لغويًّا روعيت من أجل المعنى ، وكانت أنسب من حيث النغم الصوتي في رءوس الآي .. ونحن نوجز ما ذكره مع تعليق لنا عليه :

١- تقديم المعمول ، إما على العامل نحو : ﴿ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴾ (سبأ:٤٠) ، أو على معمول آخر أصله التقديم نحو : ﴿ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴾ (طه:٢٣) .. والأصل عنده : «لنريك الكبرى من آياتنا» هذا ما يُفهم من كلامه[1] ، وإما على الفاعل نحو : ﴿ وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴾ (القمر:٤١) ، وكذلك تقديم خبر كان على اسمها نحو : ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ (الإخلاص:٤) .

٢- تقديم ما هو متأخر في الزمان نحو : ﴿ فَلِلَّهِ ٱلْأَخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴾ (النجم:٢٥).

٣- تقديم الفاضل على الأفضل نحو : ﴿ بِرَبِّ هَـٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴾ (طه:٧٠) .

٤- تقديم الضمير على ما يفسره نحو : ﴿ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴾ (طه:٦٧) .

٥- تقديم الصفة الجملة على الصفة المفردة نحو : ﴿ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ كِتَـٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴾ (الإسراء:١٣) .

٦- حذف ياء المنقوص : ﴿ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴾ (الرعد:٩) و ﴿ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴾ (غافر:٣٢) .

٧- حذف ياء الفعل غير المجزوم نحو : ﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴾ (الفجر:٤) .

٨- حذف ياء الإضافة نحو : ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴾ (القمر:١٦).

٩- زيادة حرف المد ، مثل : ﴿ ٱلظُّنُونَا۠ ﴾ (الأحزاب:١٠) و﴿ ٱلسَّبِيلَا۠ ﴾ (الأحزاب:٦٧) و﴿ ٱلرَّسُولَا۠ ﴾ (الأحزاب:٦٦) قال : ومنه إبقاؤه مع الجازم

---

(١) انظر : الإتقان في علوم القرآن للسيوطي : ٢/٩٨ .

نحو : ﴿ لَّا تَخَفْ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴾ (طه:٧٧) و﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴾ (الأعلى:٦) على القول بأنه نهي[١] .

١٠- صرف ما لا ينصرف نحو : ﴿ قَوَارِيرَاْ ۝ قَوَارِيرَاْ ﴾ (الإنسان:١٥،١٦).

١١- إيثار تذكير اسم الجنس كقوله : ﴿ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴾ (القمر:٢٠) .

١٢- إيثار تأنيثه نحو : ﴿ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾ (الحاقة:٧) .

١٣- الاقتصار على أحد الوجهين الجائزين اللذين قرئ بهما في السبع في غير ذلك نحو : ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ تَحَرَّوْاْ رَشَدًا ﴾ (الجن:١٤) قال : «ولم يجئ رشدًا في السبع» ، وكذا : ﴿ وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾ (الكهف:١٠) لأن الفواصل في السورتين محركة الوسط»[٢] .

يقصد أن فتح «الشين والراء» في هذين الموضعين لم يجمع عليهما القرَّاء السبعة وقد جاء خلاف ذلك في غير هذين الموضعين نحو : ﴿ وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ ﴾ (الأعراف:١٤٦) بضم الراء وسكون الشين .

قال : ونظير ذلك قراءة : ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ (المسد:١) بفتح الهاء وسكونها ، ولم يقرأ : ﴿ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴾ (المسد:٣) إلا بالفتح لمراعاة الفاصلة[٣] .

١٤- إيراد الجملة التي رد بها ما قبلها على غير وجه المطابقة في الإسمية والفعلية نحو : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴾ (البقرة:٨) لم يطابق فيقول : «لم يؤمنوا» لذلك .

١٥- إيراد أحد القسمين غير مطابق للآخر كذلك ، نحو : ﴿ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ (العنكبوت:٣) لم يقل : «كذبوا».

(١،٢،٣) انظر : الإتقان في علوم القرآن للسيوطي : ٢/٩٨ .

١٦- إيراد أحد جزئى الجملتين على غير الوجه الذي أورد عليه نظيرها من الجملة الأخرى نحو : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ (البقرة:١٧٧) .

١٧- إيثار أغرب اللفظين نحو : ﴿ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴾(النجم:٢٢)، ونحو : ﴿ لَيُنۢبَذَنَّ فِي ٱلْحُطَمَةِ ﴾ (الهمزة:٤) بدل : « جهنم » . وقال في المدثر : ﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴾ (المدثر:٢٦)، وفي سأل : ﴿ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴾ (المعارج:١٥) ، وفي القارعة : ﴿ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴾ (القارعة:٩) لمراعاة الفواصل في كل سورة .

١٨- اختصاص كل من المشتركين بموضع نحو : ﴿ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (إبراهيم:٥٢) ، وفي طه : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ ﴾ (طه:٥٤) .

١٩- حذف المفعول نحو : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴾ (الليل:٥) ، ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾ (الضحى:٣).

ومنه حذف متعلق أفعل التفضيل:﴿ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴾(طه:٧) و﴿ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ (طه:٧٣) .

٢٠- الاستغناء بالإفراد عن التثنية نحو : ﴿ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴾ (طه:١١٧) .

٢١- الاستغناء به عن الجمع ، نحو : ﴿ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ (الفرقان:٧٤)، ونحو : ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴾ (القمر:٥٤) لم يقل : « أئمة » ، ولا « أنهار » كما ورد في غير هذين الموضعين .

٢٢- الاستغناء بالتثنية عن الإفراد نحو : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾ (الرحمن:٤٦) فثنى لأجل الفاصلة ، ومثله : ﴿ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴾ (الشمس:١٢) فإنهما رجلان ، ولم يقل : « أشقياها » للفاصلة .

٢٣- الاستغناء بالتثنية عن الجمع نحو قوله : ﴿ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴾ (الرحمن:٤٨).

٢٤- الاستغناء بالجمع عن الإفراد نحو : ﴿ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴾ (إبراهيم:٣١) أي : ولا خلة ، فجمع للفاصلة .

٢٥- إجراء غير العاقل مجرى العاقل : ﴿ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ (الأنبياء:٣٣) و﴿ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾ (يوسف:٤) .

٢٦- إمالة ما لا يمال كآي طه والنجم .

٢٧- الإتيان بصيغة المبالغة نحو : «قدير» و«عليم» مع ترك ذلك في بعض المواضع ، ومنه : ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾ (مريم:٦٤) .

٢٨- إيثار بعض أوصاف المبالغة على بعض.نحو:﴿ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾ (ص:٥) .

٢٩- الفصل بين المعطوف والمعطوف عليه ، نحو : ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴾ (طه:١٢٩).

٣٠- إيقاع الظاهر موقع الضمير ، نحو : ﴿ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴾ (الأعراف:١٧٠).

٣١- وقوع مفعول موقع فاعل ، نحو : ﴿ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴾ (الإسراء:٤٥) أي ساتر .

٣٢- وقوع فاعل موقع مفعول ، نحو : ﴿ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾ (الحاقة:٢١) ، وقوله : ﴿ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ﴾ (الطارق:٦).

٣٣- الفصل بين الصفة والموصوف ، نحو : ﴿ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَىٰ ﴾ (الأعلى:٥) إن أعرب «أحوى» صفة للمرعى أي حالاً .

٣٤- إيقاع حرف مكان غيره ، نحو : ﴿ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴾ (الزلزلة:٥) أي إليها .

٣٥- تأخير الوصف الأبلغ ، ومنه : ﴿ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾ (الفاتحة:٣) .

وفي هذا الموضع قصور في التعبير ، لأن الأولى أن يقول : تأخير الوصف الأبلغ عما هو دونه .

٣٦- حذف الفاعل ونيابة المفعول، نحو: ﴿ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴾ (الليل:١٩) .

٣٧- إثبات هاء السكت ، نحو : ﴿ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ ﴾ (الحاقة:٢٩) .

٣٨- الجمع بين المجرورات نحو : ﴿ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴾ (الإسراء:٦٩) قال : «فإنَّ الأحسن الفصل بينها إلا أن الفاصلة اقتضت عدمه وتأخير : تبيعًا» .

٣٩- العدول عن صيغة المضي إلى الاستقبال : ﴿ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ (البقرة:٨٧) .

٤٠- تغيير صيغة الكلمة، نحو : ﴿ وَطُورِ سِينِينَ ﴾ (التين:٢) . والأصل : سيناء[1] .

● **وقفة ناقدة :**

الحقيقة التي يجب التسليم بها ـ ولا بديل لذلك أبدًا ـ أن تحقيق الانسجام الصوتي في القرآن الكريم قد اختص بمثل هذه العوامل .

على أن الحقيقة يجب أن تُشفع بحقيقة أخرى ، مؤداها : أن هذه التسهيلات لم تكن لرعاية اللفظ على جانب المعنى وإلا ما كنا نرى في آي القرآن مواضع كثيرة ـ وكثيرة جدًّا ـ تركت تلك الرعاية اللفظية وخولف بين الفواصل فيها مع إمكان مجيئها على نسق واحد .

فهذه التسهيلات إنما أوفت بحق المعنى كما أوفت بحق اللفظ ولا شك في أن ما كان شأنه كذلك كان بالجودة والحسن أولى .

ولنذكر لذلك مثلاً :

قال تعالى في سورة الإسراء : ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴾ (الإسراء:٤٥) جاءت هذه الآية في سياق فاصلتها الراء المسبوقة بحرف مد ، والحجاب يكون ساترًا لا مستورًا ، فكان أن يقال : «ساترًا» .

---

(١) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي : ٩٩/١، ١٠٠ .

وهذا أغرى صاحب الملاحظات أن يقول : إن وقوع مفعول مكان فاعل إنما جاء من أجل الرعاية اللفظية ، وهذا وهم .

وإنما الداعي إلى ذلك هو المبالغة في قوة المعنى ، وأن الحجاب الذي جُعِلَ بين الكافرين وبين الرسول وما يتلوه من آيات بيِّنات ، لعدم انتفاعهم بها وشدة نفورهم عنها ، كاد يكون لقوة ستره مستوراً ، أي أن أثره تعدى موضعه حتى شمل الحجاب نفسه ففي التعبير تخييل على حد قول الشاعر :

وَمَا أَنَا وَحْدِي قُلْتُ ذَا الشِّعْرَ كُلَّهُ وَلَكِنْ لِشِعْرِي فِيْكَ مِن نَفْسِهِ آياتُ شِعْرِ

ففي العبارة مجاز عقلي ، وكذلك يقال في قوله تعالى : ﴿ **فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ** ﴾ (الحاقة:٢١) مما أطلق عليه : إيقاع فاعل موقع مفعول .

وقد ذهب ـ كذلك إلى أن إجراء غير العاقل مجرى العاقل من أجل رعاية الفاصلة ، والواقع يخالفه .

لأن العِلَّة في إجرائه هذا المجرى أن أسند إليه من الأعمال ما لا يصدر إلا عن العاقل ، وواضح أن السجود والسبح من أعمال العاقلين ، ذلك هو السبب ، وليس رعاية الفاصلة وحدها كما زعم .

والتعبير بهذا الأسلوب فيه تحقيق للمعنى وتقوية ، فالسجود الصادر من الشمس والقمر والكواكب مماثل لما يصدر ممن هو أهل له في الفهم والإدراك .

والسبح الصادر منهما مماثل لسباحة السبَّاحين الماهرين في السهولة والانبساط [1] والانتظام حيث لا اضطراب فيه ، ولا اختلاف في سيره .

وهذه ظاهرة أسلوبية في القرآن لم تقف عند ما ذكره ، فقد جاء فيه عن الأرض والسماء : ﴿ **قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ** ﴾ (فصلت:١١) وغير ذلك كثير .

---

(١) تفسير أبو السعود : ٣٨١/٤ .

على أن بعض المواضع التي ذكرها تبدو عليها سمة الضعف ، إذ لا دليل له فيما ذكره من حذف الياء لأجل المفاضلة مستشهدًا بقوله تعالى : ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ﴾ (الفجر:٤).

إذن فماذا يصنع بقوله : ﴿ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبۡغِ ﴾ (الكهف:٤) ، وقوله : ﴿ مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِ ﴾ (الأعراف:١٧٨) وليسا برأسيي آية ؟

ومثلها في الضعف ما ذكره من تقديم هارون على موسى ، وقد ناقشنا هذا في البحث السابق ، بما لا حاجة إلى ذكره هنا .

وكذلك ما ذكره دليلاً على الفصل بين الصفة والموصوف : ﴿ وَٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلۡمَرۡعَىٰ ۝٤ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحۡوَىٰ ﴾ (الأعلى:٤،٥) حيث جوَّز أن يكون «أحوى» صفة للمرعى ليسلم له الدليل وما الداعي لذلك ؟ ولماذا لا يكون «أحوى» صفة «غثاء» ؟

• توجيه ابن أبي الإصبع لموضع مماثل :

والذي يجب التنبيه عليه هنا ـ أيضًا ـ أن القرآن الكريم يُرى ـ أحيانًا ـ قد سلك مسلكًا يبدو مخالفًا للعرف اللغوي والنحوي حسبما هو مشهور عند العلماء ، لكن كل موضع حدث فيه ذلك يتضح من البحث العميق فيه ألا مجافاة ولا مخالفة لغوية ولا نحوية وإنما هو أسلوب محكم قد بدت فيه اللغة في أسمى ما تكون .

ونسوق مثالاً على ذلك :

قال الله تعالى : ﴿ لَن يَضُرُّوكُمۡ إِلَّآ أَذٗىۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمۡ يُوَلُّوكُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴾ (آل عمران:١١١) .

قال ابن أبي الإصبع في توجيه هذه الآية : «فإن على ظاهر هذه الآية إشكالين : أحدهما من جهة الإعراب ، والآخر من جهة المعنى ، فأما الذي من جهة الإعراب فعطف ما ليس بمجزوم على المجزوم ، والذي من جهة المعنى

أنَّ صدر الآية يغني عن فاصلتها لأن توليهم عند المقاتلة دليل على الخـذلان ... والخذلان والنصر لا يجتمعان» .

«والجواب أن الله سبحانه وتعالى أخبر المؤمنين بأن عدوهم هذا إن قاتلهم انهزم . ثم أراد ـ وهو أعلم ـ تكميل القوة بإخبارهم أنه مع توليه الآن لا يُنصر أبدًا في الاستقبال ، فهو مخذول أبدًا ما قاتلهم ، فيثق المؤمنون بنصر الله تعالى لهم على هذا العدو ، ويتيقنوا أنه متى قاتلهم كان مخذولاً ، فيقدموا على لقائه كلما أرادوا ذلك بثبات قلوب ، وقوة نفوس ، لا يتوقفون في لقائه ولا يخشون مغبة قتاله ، ولو وقع الاقتصار على دون الفاصلة لم يوف الكلام بهذا المعنى ، لأنه لا يعطي قوله : ﴿ وَإِن يُقَـٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴾ أنهم متى قاتلوهم كان الأمر ذلك ... ولما علم سبحانه ـ وهو أعلم ـ أن الاقتصار على ما دون الفاصلة لا يُفهم منه دوام هذه البشارة إلى آخر الأبد ، والمقصود دوامها قال : ﴿ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴾ . ومنع الفعل الجزم ، وإن عطف على مجزوم ليبقى المعنى الذي وضعت له صيغة المضارع من الدلالة على الحال والاستقبال ، فيُعلم أنه أراد ـ وهو أعلم ـ أنهم لا يُنصرون في الحال ، ولا في الاستقبال ، ونوى من الفعل الاستئناف لا العطف على ما تقدم فيُقدَّر أنه قال :«ثم هم لا يُنصرون»..

وأحسن ما وقع في هذا النظم اختيار لفظة «ثم» دون سائر حروف العطف لما تدل عليه من التراخي والمهلة الملائمة لما قصد من الاستقبال فاتضح المعنى وارتفع الإشكال ، وتضمنت هذه اللفظات السبع : ستة عشر ضربًا من البديع : «التعليق ، والمطابقة المعنوية ، والاحتراس ، والتكميل ، والتنكيت ، والمقارنة ، والإيضاح ، والإدماج ، والترشيح ، والإيغال ، والإيجاز ، والافتنان ، وحسن النسق ، والتهذيب ، وحسن البيان ، والمثل السائر» . وأعجب ما وقع فيها أن حرفًا واحدًا منها وقع فيه ـ على انفراده ـ ثمانية أضرب ، والحرف لفظة «ثم» وقع فيها الاحتراس والتنكيت والمقارنة والإيضاح ، والإدماج

والتكميل ، وحسن النسق والترشيح ، توجد هذه الضروب بوجودها وتعدم بعدمها ، وبيان هذا أنَّا لو قدَّرنا موضعها «الواو» لسقط ذلك كله[1] .

وقد فات هذا الموضع ابن الصائغ ولو وقف عليه لسماه : «عطف المرفوع على المجزوم»، كما فات صاحب «البرهان» الذي راح يردد ما قاله متفقًا ومخالفًا[2] .

● **التكرار :**

يقع التكرار في القرآن الكريم على وجوه :

١- مرة يكون المكرر أداة تؤدي وظيفة في الجملة بعد أن تستوفى ركنيها الأساسيين .

٢- وأخرى تتكرر كلمة مع أختها لداع ، بحيث تفيد معنى لا يمكن الحصول عليه بدونها .

٣- فاصلة تكرر في سورة واحدة على نمط واحد .

٤- قصة تتكرر في مواضع متعددة مع اختلاف في طرق الصياغة وعرض الفكرة .

٥- بعض الأوامر والنواهي والإرشادات والنصح مما يقرر حكمًا شرعيًّا أو يحث على فضيلة أو ينهى عن رذيلة أو يرغب في خير أو ينفر من شر .

وتكرار القرآن في جميع هذه المواضع التي ذكرناها ، والتي لم نذكرها ، مما يُلحظ عليها سمة التكرار ، في هذا كله يباين التكرار القرآني ما يقع في غيره من الأساليب لأن التكرار وهو فن قولي معروف ، قد لا يسلم الأسلوب معه من القلق والاضطراب فيكون هدفًا للنقد والطعن ، لأن التكرار رخصة في الأسلوب ـ إذا صح هذا التعبير ـ والرخص يجب أن تؤتى في حذر ويقظة .

---

(١) بديع القرآن لابن أبي الإصبع ص ٢٦١-٢٦٣ مع تصرف يسير للحذف (تحقيق محمد حفني شرف).

(٢) انظر : البرهان في علوم القرآن للزركشي : ١/٦٠-٦٧ .

● **وظيفة التكرار في القرآن :**

مع هذه المزالق كلها جاء التكرار في القرآن الكريم محكمًا ، وقد رد فيه كثيرًا ـ فليس فيه موضع قد أخذ عليه ـ بله دعاوي المغالين فإن بينهم وبين القرآن تارات فهم له أعداء ـ وإذا أحسنا الفهم لكتاب الله فإن التكرار فيه ـ مع سلامته من المآخذ والعيوب ـ يؤدي وظيفتين :

أولاهما : من الناحية الدينية .

ثانيتهما : من الناحية الأدبية .

فالناحية الدينية ـ باعتبار أن القرآن كتاب هداية وإرشاد وتشريع ـ لا يخلو منها فن من فنونه ، وأهم ما يؤديه التكرار من الناحية الدينية هو تقرير المكرر وتوكيده وإظهار العناية به ليكون في السلوك أمثل وللاعتقاد أبين .

أما الناحية الأدبية فإن دور التكرار فيها متعدد وإن كان الهدف منه في جميع مواضعه يؤدي إلى تأكيد المعاني وإبرازها في معرض الوضوح والبيان .

وليكن حديثنا عنه على حسب المنهج الذي أثبتناه في صدر هذا البحث .

● **تكرار الأداة :**

ومن أمثلتها قوله تعالى : ﴿ **ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ** ﴾

(النحل: ١١٠).

وقوله تعالى : ﴿ **ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ** ﴾ (النحل: ١١٩).

والظاهر من النظر في الآيتين تكرار « إنَّ » فيهما ، وهذا الظاهر يقتضي الاكتفاء بـ « إنَّ » الأولى ، ولم يطلب إلا خبرها ، وهو في الموضعين ـ أعني الخبر ـ « لغفور رحيم » لكن هذا الظاهر خولف وأعيدت « إنَّ » مرة أخرى ، ولهذه المخالفة سبب .

وهذا السبب هو طول الفصل بين « إنَّ» الأولى وخبرها ، وهذا أمر يُشعِر بتنافيه مع الغرض المسوقة من أجله « إنَّ» وهو التوكيد ، لهذا اقتضت البلاغة إعادتها لتلحظ النسبة بين الركنين على ما حقها أن تكون عليه من التوكيد .

على أن هناك وظيفة أخرى هي : لو أن قارئًا تلا هاتين الآيتين دون أن يكرر فيهما « إنَّ» ثم تلاهما بتكرارها مرة أخرى لظهر له الفرق بين الحالتين : قلب وضعف في الأولى ، وتناسق وقوة في الثانية :

ومن أجل هذا الطول كررت في قول الشاعر[1] :

وَإِنِ امرأ طَالَتْ مَوَاثِيقُ عَهْدِهِ عَلَى مِثْلِ هَذَا . إِنَّهُ لَكَرِيمُ

يقول ابن الأثير رائيًا هذا الرأي : « ... فإذا وردت « إنَّ» وكان بين اسمها وخبرها فسحة طويلة من الكلام ، فإعادة « إنَّ» أحسن في حكم البلاغة والفصاحة كالذي تقدَّم من الآيات »[2] .

- **تكرار الكلمة مع أُختها :**

ومن أمثلتها قوله تعالى : ﴿ **أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ وَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ** ﴾ (النمل:٥) .

فقد تكررت «هم» مرتين ، الأولى مبتدأ خبرها : «الأخسرون» ، والثانية ضمير فصل جيء به لتأكيد النسبة بين الطرفين وهي : هم الأولى بالأخسرية .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ **أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَاقِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ** ﴾ (الرعد:٥) .

تكررت ـ هنا ـ «أولئك» ثلاث مرات ، ولم تجد لهذه الكلمة المكررة مع ما جاورها إلا حسنًا وروعة ، فالأولى والثانية : تسجلان حكمًا عامًّا على منكري البعث : كفرهم بربهم وكون الأغلال في أعناقهم .

---

(١) ديوان الحماسة : ١٠٥/٢ ـ ولم ينسب لقائل معين .

(٢) المثل السائر لابن الأثير : ٧/٣ تحقيق الدكتور بدوي طبانة والدكتور أحمد الحوفي .

والثالثة : بيان لمصيرهم المهين ، ودخولهم النار ، ومصاحبتهم لها على وجه الخلود الذي لا يعقبه خروج منها .

ولو أسقطت ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ من الموضعين الثاني والثالث لرك المعنى واضطرب ، فتصبح الواو الداخلة على : ﴿ ٱلْأَغْلَٰلُ فِيٓ أَعْنَاقِهِمْ ﴾ واو حال ، وتصبح الواو الداخلة على : ﴿ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ عاطفة عطفًا يرك معه المعنى .

لذلك حسن موضع التكرار في الآية لما فيه من صحة المعنى وتقويته ، وتأكيد النسبة في المواضع الثلاثة للتسجيل عليهم .

● **تكرار الفاصلة :**

سبق أن ذكرنا في مبحث الفواصل صوراً من تكرار الفاصلة مرتين بدءًا وثلاث مرات نهاية ، وقد وجهنا أسلوب التكرار في تلك الصور ، ولكنَّا ـ هنا ـ أمام فاصلة لم تقف في تكرارها عند حد المرات الثلاث ، بل تعدت ذلك بكثير ، لذلك آثرنا أن نبحثها هنا إذ هي بهذا الموضع أنسب .

ونعتمد في دراستنا لتكرار الفاصلة على ثلاث سور هي :« الرحمن ـ القمر ـ المرسلات » ، وهي السور التي برزت فيها هذه الظاهرة الأسلوبية ، بشكل لم يبد في غيرها ، كما ورد فيها .

فقد تكررت : ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [1] في « الرحمن »، وتكررت ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ [2] في « القمر » ، وتكررت : ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [3] في « المرسلات » .

● **تكرار الفاصلة في « القمر » :**

ولهذا التكرار في المواضع الثلاثة أسباب ومقتضيات ، ففي سورة « القمر » نجد العبارة المكررة وهي : ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ قد صاحبت في

---

(١) وردت ٣١ مرة . (٢) وردت ٤ مرات . (٣) وردت ١٠ مرات .

موضع من مواضع تكرارها قصة عجيبة الشأن ، وكان أول موضع ذُكِرت فيه عقب قصة قوم نوح ، وبعد أن صوَّر القرآن مظاهر الصراع بينهم وبين نوح عليه السلام ثم انتصار الله لنوح عليهم ، حيث سلَّط عليهم الطوفان ، فأغرقهم إلا مَن آمن وعصمه الله .

ونجد أن الله نجَّى نوحًا وتابعيه ، ولكن تبقى هذه القصة موضع عظة وادكار ، ولتلفت إليها الأنظار وللتهويل من شأنها جاء قوله تعالى عقبها : ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ مُصدَّرًا باسم الاستفهام «كيف» للتعجيب مما كان ، ولقد مهَّد لهذا التعجيب بالآية السابقة عليه ، وهي قوله تعالى : ﴿ وَلَقَد تَّرَكْنَهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ ؟ (القمر:١٥) .

والموضع الثاني لذكرها حين قصَّ علينا القرآن قصة عاد وعتوها عن أمر ربها ، وفي «عاد» هذه نجد العبارة اكتنفت القصة بدءًا ونهاية ، قال تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ۝١٨ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ۝١٩ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ۝٢٠ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ ؟ (القمر:١٨-٢١) .

وتكرار العبارة ـ هكذا ـ في البداية والنهاية مخرج لها مخرج الاهتمام ، مع ملاحظة أن أحداث القصة ـ هنا ـ صُوِّرت في عبارات قصيرة ولكنها محكمة وافية .. ولم يسلك هذا المسلك في قصة نوح ـ أعني قصر العبارات ـ والسبب ـ فيما يبدو لي ـ أن إهلاك قوم نوح كان بالإغراق في الماء ، وهي وسيلة كثيراً ما تكون سبب هلاك ، فقد كانت سبب هلاك فرعون وملئه .. أما أن يكون الإهلاك بالريح فذلك أمر يدعو إلى التأمل والفكر .

ولعل مما يقوى رأينا هذا ، أن هذه القصة ـ قصة عاد ـ وردت في موضع آخر من القرآن يتفق مع هذا الموضع من حيث الفكرة ، ويختلف معه ـ قليلاً ـ من حيث طريقة العرض وزيادة التفصيل .

جاء في الحاقة : ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴾ ؟ (الحاقة:٦-٨).

فإرسال الريح ـ هكذا ـ سبع ليال وثمانية أيام حسومًا مدعاة للعظة والاعتبار .

ومثله : ﴿ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ۝٤١ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴾ (الذاريات:٤١،٤٢) .

﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ۝١٥ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِيٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْأٓخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴾(فصلت:١٥،١٦) .

فقد بطرت «عاد» نِعَم ربها عليها ، وغرَّها ما هي فيه من أسباب التمكين في الأرض وقوة البطش أن تبارز ربها ومولى نعمها بالمعاصي ، فأهلكها الله بما لا قِبَل لها به ، وفي كل موضع يذكر القرآن فيه قصة هؤلاء تأتي عباراته قوية هادرة واعظة زاجرة ..

جاء في موضع آخر : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَٰدِ ﴾ (الفجر:٦-٨) .

وكانت عاقبتها خسرا وهلاكًا مع من طغى في الأرض بغير الحق : ﴿ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝١٣ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴾ (الفجر:١٣،١٤).

أما الموضع الأخير الذي ذُكِرت فيه هذه العبارة : ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ فحين قصَّ الله علينا قصة «ثمود» ، وقد جاءت فيها كذلك مهيئة لتلقي صورة العقاب بعد التشويق إليها عند السامع ، ولفت نظره إليها : ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ۝٣٠ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴾ (القمر:٣٠،٣١).

ومن هنا ندرك شدة اقتضاء المقام لهذا التكرار ، فليست إحدى العبارات في موضع بمغنية عن أختها في الموضع الآخر ، إنما هو اتساق عجيب تطلبه المقام من الناحيتين : الدينية والأدبية .

من الناحية الدينية حيث تحمل المؤمنين على التذكر والاعتبار عقب كل قصة من هذه القصص ، ومن الناحية الأدبية لأن العبارة : ﴿ **فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ** ﴾ تأتي عقب كل قصة ـ أيضًا ـ لافتة أنظار المشاهدين إلى « كنه » النهاية وختام أحداث القصة .

وقد مهَّد القرآن لهذا التكرار حيث لم يأت إلا بعد خمس عشرة آية تنتهي كلها بفاصلة واحدة تتحد نهاياتها بحرف « الراء » مع التزام تحريك ما قبلها ، وذلك هو نهج فواصل السورة كلها ، وقد أشاع هذا النسق الشاجي نوعًا من الموسيقى الصاخبة العنيفة التي تتلاءم مع جو الإنذار أيما تناسب ، والسورة فوق كل هذا مكية النزول والموضوع .

كما أن الطابع القصصي هو السائد في هذه السورة ، فبعد أن صوَّر القرآن الكريم موقف أهل مكة من الدعوة الجديدة ، وبيَّن ضلال مسلكهم ، وقد كان الرسول عليه السلام حريصًا على هدايتهم في وقت هم فيه أشد ما يكونون إعراضًا عنه ، لهذا اقتضى الموقف العام سوق عِبَر الماضين ـ ليكون في ذلك تسلية للرسول عليه السلام ومن اتبعه وزجر لمن عارضه وصَدَّ عنه .

وما دام هذا هو طابع السورة فإن أسس التربية ـ خاصة تربية الأمم ـ تستدعى تأكيد الحقائق بكل وسيلة ومنها التكرار الذي لمسناه في سورتنا هذه ، حتى لكأنه أصيل فيها وليس بمكرر .

● تكرار آخر في « القمر » :

وفي هذه السورة « القمر » مظهر آخر من مظاهر التكرار ، هو قوله تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ** ﴾ ؟ (القمر:١٧ ، ٢٢ ، ٣٢ ، ٤٠) حيث ورد في السورة أربع مرات ، وهذه دعوة صالحة للتأمل فيما يسوقه الله من قصص .

وقد اشتملت هذه الآية : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ على خبر واستفهام ، والخبر تمهيد للاستفهام الذي فيها وإغراء عليه .

● **التكرار في «الرحمن» :**

أما التكرار الوارد في «الرحمن» في قوله تعالى : ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ حيث ذكر فيها إحدى وثلاثين مرة فله أسبابه كذلك ، ويمكن أن نسجل هذه الملاحظات .

أولاً : أن هذا التكرار الوارد في سورة «الرحمن» هو أكثر صور التكرار الوارد في القرآن على الإطلاق .

ثانيًا : أنه ـ أي التكرار في هذا الموضع ـ قد مُهِّدَ له تمهيدًا رائعًا ، حيث جاء بعد اثنتى عشرة آية متحدة الفواصل ، وقد تكررت في هذا التمهيد كلمة «الميزان» ثلاث مرات متتابعة دونما نبو أو ملل :

﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ﴾ (الرحمن:٧-٩).

وهذا التمهيد قد أشاع ـ كذلك ـ لحنًا موسيقيًّا عذبًا كان بمثابة مقدمة طبيعية لتلاؤم صور التكرار ولتألفها النفس وتأنس بها فلا تهجم عليها هجومًا لأن القرآن قد راعى في فواصل المقدمة التمهيدية ما انبنت عليه فواصل الآية المكررة .

ثالثًا : أن الطابع الغالب على هذه السورة هو طابع تعداد النِّعَم على الثَقَلين : الإنس والجن ، وبعد كل نعمة أو نِعَم يعددها الله تأتي هذه العبارة : ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ .

وعلى هذا الأساس يمكن بيسر فهم عِلَّة التكرار الذي حفلت به سورة الرحمن أنه تذكير وتقرير لنعمه ، وأنها من الظهور بمكان فلا يمكن إنكارها أو التكذيب بها .

« فتكرار الفاصلة في الرحمن .. يفيد تعداد النِّعَم والفصل بين كل نعمة وأخرى لأن الله سبحانه عدَّد في السورة نعماءه وذكَّر عباده بآلائه ، ونبههم على قدرها وقدرته عليها ولطفه فيها ، وجعلها فاصلة بين كل نعمة لتعرف موضع ما أسداه إليهم منها ، ثم فيها إلى ذلك معنى ـ التبكيت والتقريع والتوبيخ ـ لأن تعداد النِّعَم والآلاء من الرحمن تبكيت لمن أنكرها كما يبكت منكر أيادي المنعَم عليه من الناس بتعديدها[1] .

ولقائل أن يسأل : إن هذه الفاصلة قد تكررت بعد ما هو ليس بنعمة من وعيد وتهديد ، فكيف يستقيم التوجيه إذن بعد هذه الآيات :

﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ (الرحمن:٣٥،٣٦) .

﴿ يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَاصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ (الرحمن:٤١،٤٢) .

﴿ هَـٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ (الرحمن:٤٣-٤٥).

وظاهر هذه الآيات بلاء وانتقام وليس بنعم .

والجواب : ولكن المتأمل يدرك أن في الإنذار والوعيد وبيان مآل الضالين عصمة للإنسان من الوقوع فيما وقعوا فيه فيكون مصيره مصيرهم .

ومن هذا الاعتبار يتبين أن هذه المواضع مندرجة تحت النِّعَم ، لأن النعمة نوعان : إيصال الخير ، ثم دافع الشر ، والسورة اشتملت على كلا النوعين ، فلذلك كررت الفاصلة .

---

(١) خزانة الأدب للحموي : ص ١٤٤، ١٤٥ .

● **التكرار في «المرسلات» :**

بقى التكرار الوارد في سورة المرسلات ، وقد صُنِعَ فيه ما صُنع في نظيريه في «القمر» و«الرحمن» من التقديم له بتمهيد .. وله ـ مثلهما ـ هدف عام اقتضاه .

بَيْدَ أن التمهيد يختلف عما سبق في «القمر» و«الرحمن» ، فقد رأينا فيهما اتحاد الفاصلة في الحروف الأخيرة مع التزام نهج معيَّن فيما قبله ، أما هنا فإن الأمر يختلف .

فقد اشتمل التمهيد على مجموعتين من الآيات أُولاهما لها فاصلة تختلف عن ثانيتهما وهي : ﴿ **وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ۝١ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ۝٢ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ۝٣ فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ۝٤ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ۝٥ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا** ﴾

(المرسلات: ١-٦) .

وختمت هذه المجموعة بقفلة هي سر الجمال كله : ﴿ **إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ** ﴾

(المرسلات: ٧).

ما قبلها مُقْسَم به ، وهي جواب القَسَم ، والمُقْسَم به متعدد كأجزاء الشرط إذا بدئت بها السور ، وهي ـ كما تقدم ـ خصائص تعبيرية آسرة .

وبجواب القَسَم تنتهي هذه المجموعة ـ ثم تبدأ المجموعة الثانية وهي :

﴿ **فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ۝٨ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ۝٩ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ۝١٠ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ۝١١ لِأَىِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ۝١٢ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ۝١٣ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ۝١٤ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ** ﴾ (المرسلات: ٨-١٥) .

وهذه المجموعة تتكون من :

أولاً : شرط يتكرر أربع مرات محذوف الجواب ، وكله حديث عن أهوال القيامة ومقدمات البعث .

ثانيًا : استفهام يعتبر مدخلاً لحقيقة هامة تقودنا إلى الهدف المنشود ، وهو التوصل إلى مصير المكذِّبين يوم الدين .

ثالثًا : جواب هذا الاستفهام الذي اشتمل على كلمة : « يوم الفصل » وكانت هذه الكلمة الشعاع الذي قادنا إلى الساحة الكبرى : ساحة القضاء العادل والقصاص الحكيم :

﴿ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ۝٣٢ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ۝٣٣ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ۝٣٤ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ .

فانظر إلى هذا التمهيد الحكيم الذي مهَّد القرآن به لهذه العبارة ، حتى لكأنها هذه المقصودة .

ثم تكررت هذه الآية : ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ عشر مرات بعد هذه المرة وهي في كل مواضعها تتلو مشهدًا من مشاهد القيامة ، وصورة من صور الحشر ، أو مشاهد القُدرة الإلهية .

- **سبب عام :**

أما السبب العام الذي اقتضى هذا التكرار فإن الآية أعقبت ما من شأنه أن يكون أكبر داع من دواعي الإيمان والتصديق ، بحيث يكون الخارج عن هذا السلوك والمكذِّب به صائرًا ـ لا محالة ـ إلى الويل ، والعذاب الأليم .

فويل للمكذبين بيوم الفصل ، وويل للمكذبين بهلاك المجرمين .. ويل للمكذبين بقُدرة الله وتقديره أرزاق الخلق ، وعلى هذا المنهج يمضي التكرار في السورة كلها .

- **التكرار في القصة :**

أما تكرار القصة في القرآن فذلك سمته الغالبة على معظم قصصه ، إذ لم يأت فيه غير مكرر إلا القليل مثل قصة يوسف عليه السلام ، وللعلماء توجيه في سردها مرة واحدة دون تكرار ، أهم ما في هذا التوجيه أن حرص الإسلام على صيانة الأعراض كان سببًا في ذلك لأن في قصة يوسف محاولة إغراء على جريمة خُلُقية ، لذلك فرغ القرآن من سوقها للعظة والاعتبار مرة واحدة .

والقصص القرآني في جملته مسوق لغرضين أساسيين :

أولاً : تسلية الرسول عليه السلام وتثبيت فؤاده ، وأنه لم يكن بدعًا من الرسل خولفوا مثل مخالفته ، وحق على المخالفين العذاب ، ونصر الله رسله وجنده .

ثانيًا : تهديد وزجر المخالفين ، وبيان لمصير أمثالهم ، علَّهم يرتدعون ويقلعون عن غيهم .

ودواعي هذين الغرضين متكررة مرات ومرات ، فالرسول ـ عليه السلام ـ لم يكف عن الدعوة إلى الإسلام ، والكفار لم يكفوا عن الإعراض والمخالفة ، فإذا اعتبرنا أن مجموع هذين الأمرين هما الحال المقتضية لإيراد القصة في القرآن ، فإن تكرارهما يستدعى تكرار مقتضى الحال ، وهو تكرار القصص مقدرًا في كل قصة على عدة مناسبات دقيقة لمقام الحديث .

فتكرار القصة القرآنية في أكثر من موضع ظاهرة فنية ودعامة تربوية ، كان لا بد أن تكون .

ومع هذا المقتضى فإن تكرار القصة في القرآن لم يكن على نمط واحد ، أعني أن هناك فروقًا بين مواضع تكرارها ، ولم تكرر فيه قصة واحدة على وجه واحد في الصياغة أو الفكرة ـ أو فيهما معًا .

فهناك اختلاف في الصياغة ، وهناك اختلاف في الطول والقصر ، واختلاف في الأحداث التي تتناولها ، وطريقة عرض تلك الأحداث .

وهي بهذا ـ جديدة متجددة دائمًا ـ لا مدعاة للسآمة والملل ـ كما يزعم المغرضون ـ بل فيها روح وطرافة .

كذلك فإن المعاني التي تتحدث عنها القصة القرآنية لم تكن لمجرد التهديد أو التسلية .

ولكنها حقائق يُراد إثباتها لتؤدي دورها في كل عصر ، متى توافرت دواعيها .

والتكرار كما يقول جوستاف لوبون : «يُحوِّل المكرر إلى معتقد»[1] .

ولذلك كان التكرار وسيلة من أهم وسائل التربية والتثقيف .

● **دواعي التكرار في القصة :**

يقول صاحب «البرهان» موجهًا لتكرار القصة في القرآن : «إن عادة العرب في خطابتها إذا اهتمت بشيء ـ أرادت تحقيقه وقرب وقوعه أو قصدت الدعاء إليه، كررته توكيدًا وكأنها تقيم تكراره مقام المُقسَم عليه أوالاجتهاد في الدعاء بحيث تقصد الدعاء ، والقرآن نزل بلسانهم فكانت مخاطباته فيما بين بعضهم وبعض ، وبهذا المسلك تستحكم الحُجَّة عليهم في عجزهم عن المعارضة»[2].

ويمضي الزركشي بعد هذا موضحًا لظاهرة التكرار في القرآن ، ويسوق أدلة من القرآن نفسه لبيان صحة ما يقول هو عنه ، بَيْدَ أنه لم يأت بمثال واحد يحلل فيه التكرار في الأسلوب القرآني وإن لم يفته أهم غرض فيه وهو إفادته التقرير والتوكيد قال : «وفائدته العظمى التقرير وقد قيل : إن الكلام إذا تكرر تقرر»[3].

وهناك شيء هام غفل عنه الزركشي ، إذ لا يكفي أن يكون مجرد التوافق في أسلوب القرآن وأسلوب العرب من حيث إن في كل منهما تكرارًا، لا يكفي أن يكون هذا سببًا في الحكم على التكرار بالجودة ، فنحن لسنا في موضع يُراد فيه إثبات مشروعية التكرار ، وإنما في موضع يبحث عن مزايا وخصائص التعبير القرآني ، ومنها التكرار .

ويرى الزمخشري رأيًا يقرب من رأي الزركشي لكنه أعمق فهمًا منه ، قال : «إن في التكرير تقريرًا للمعاني في الأنفس ، وتثبيتًا لها في الصدور ، ألا ترى أنه لا طريق إلى تحفظ العلوم إلا ترديد ما يرام تحفظه منها ، وكلما زاد

---

(١) روح الاجتماع ، جوستاف لوبون ص ١٥٧ .

(٢،٣) البرهان في علوم القرآن للزركشي : ٩/٣ .

ترديده كان أمكن له في القلوب ، وأرسخ له في الفهم ، وأثبت للذِّكر ، وأبعد من النسيان»[1] .

وهنا لا بد أن نقرر حقيقة هامة ، هي : أن الإشادة بجمال التكرار في القرآن لم يقتصر على العلماء العرب ، بل إن كثيراً من المستشرقين قد شهدوا بذلك منهم «جرونيبادم» ـ كما نقل عنه عبد الكريم الخطيب في كتاب «الإعجاز القرآني» (جـ ١ ص ٣٨٥) ـ ومع هذا الحق الذي يشهد به الأصدقاء والأعداء فإننا نستنطق القرآن نفسه ، وهو خير وأعدل ، ولنأخذ لهذا كله ـ مثلاً ـ قصة آدم عليه السلام ، وقد كُرِرت في سبع سور سبع مرات .

دراسة تحليلية لقصة آدم

● نصوص القصة في القرآن الكريم :

١ - البقرة من الآية ٣٠ إلى الآية ٣٨ :

قال سبحانه : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ

(١) تفسيرالكشاف للزمخشري : ٣/٣٨٥ (بتصرف) .

ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا جَمِيعٗاۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ (البقرة: ٣٠-٣٨) .

٢- الأعراف من الآية ١١ إلى الآية ٢٥ :

قال سبحانه : ﴿ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَٰكُمۡ ثُمَّ صَوَّرۡنَٰكُمۡ ثُمَّ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ لَمۡ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ إِذۡ أَمَرۡتُكَۖ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخۡرُجۡ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ ٱخۡرُجۡ مِنۡهَا مَذۡءُومٗا مَّدۡحُورٗاۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿١٨﴾ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ فَكُلَا مِنۡ حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسۡوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ لِيُبۡدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنۡهُمَا مِن سَوۡءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنۡ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيۡنِ أَوۡ تَكُونَا مِنَ ٱلۡخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٖۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحۡيَوۡنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنۡهَا تُخۡرَجُونَ﴾

(الأعراف: ١١-٢٥) .

٣- الحِجْر من الآية ٢٦ إلى الآية ٤٤ :

قال سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَـٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَـٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴾ (الحجر:٢٦-٤٤) .

٤- الإسراء من الآية ٦١ إلى الآية ٦٥ :

قال سبحانه : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَـٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾ (الإسراء:٦١-٦٥) .

٥- الكهف الآية الخمسون :

قال سبحانه : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّـٰلِمِينَ بَدَلًا ﴾ (الكهف:٥٠) .

٦- طه من الآية ١١٥ إلى الآية ١٢٧ :

قال سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ (طه:١١٥-١٢٧) .

٧- سورة «ص» من الآية ٧١ إلى الآية ٨٥ :

قال سبحانه : ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (ص:٧١-٨٥) .

ونسجل أولاً حقيقة هامة ، وهي ترتيب السور التي وردت فيها نصوص القصة حسب نزولها وهي :

أولاً ـ في مكة : سورة ص ـ الأعراف ـ طه ـ الإسراء ـ الحِجْر ـ الكهف .

ثانيًا ـ في المدينة : البقرة[1] :

ومن هذا نعلم : أن أول سورة تتحدث عن قصة آدم عليه السلام ، هي سورة « ص » ، وأنها مكية النزول ، وأن نصيب العهد المكي من قصة آدم عليه السلام كان وفيراً ، حيث وردت في ست سور ، بدأت بسورة « ص » ، واختتمت بـ« الكهف » ، وأن الكهف كانت خاتمة المطاف بالنسبة للعهد المكي .

أما العهد المدني فلم ترد فيه القصة إلا في سورة واحدة ، هي سورة البقرة ، وأن سورة البقرة هذه أول ما نزل بالمدينة بعد الهجرة الشريفة .

ولهذا فإننا سنحلل عناصر هذه القصة في كل موضع وردت فيه ، حسب هذا الترتيب النزولي .

- **عناصر القصة في سورة « ص » :**

١- إخبار الله الملائكة بخلقه بَشراً من طين .

٢- أمر الله الملائكة بالسجود لهذا البَشر ، إذا سواه ونفخ فيه من روحه ، ثم امتثال الملائكة هذا الأمر .

٣- إخبار الله تعالى بمخالفة إبليس وإبائه السجود وصيرورته من الكافرين .

٤- سؤال الله ـ وهو أعلم ـ إبليس عن سبب مخالفته وامتناعه عن السجود .

٥- اعتذار إبليس عن مخالفته أمر ربه بالسجود لآدم، وحُجَّته التي استند عليها .

٦- طرد الله إبليس من الجنة وإحقاق لعنته عليه إلى يوم الدين .

٧- طلب إبليس من ربه أن ينظره إلى يوم البعث .

٨- استجابة الله له ، وجعله من المنظرين .

---

(١) اعتمدنا في هذا الترتيب حسب ما ذكره الزركشي في البرهان : ١/١٩٣ ، ١٩٤ .

٩- عناد إبليس وإعلانه ـ مقسمًا ـ أن يغوى الناس أجمعين ، إلا عباد الله المخلصين .

١٠- توعد الله إبليس ليملأن جهنم منه ومن أتباعه .

● **عناصر القصة في «الأعراف» :**

١- الإخبار بأمر الله الملائكة أن يسجدوا لآدم ، وامتثالهم هذا الأمر .

٢- مخالفة إبليس .

٣- سؤال الله ـ وهو أعلم ـ إبليس عن مخالفته .

٤- اعتذار إبليس من مخالفته أمر ربه ، وحُجَّته التي استند عليها .

٥- أمر الله إبليس بالهبوط من الجنة منكرًا عليه أن يتكبر فيها ، وتكرار الأمر بالخروج وذمه .

٦- طلب إبليس من الله أن ينظره إلى يوم البعث .

٧- استجابة الله له .

٨- عناد إبليس وإعلانه الترصد للناس لإغوائهم وإيتاؤه إياهم من كل مدخل ينزلون فيه .

٩- تكرار الأمر له بالخروج مع ذمه وتوعده بأن يملأ الله جهنم منه ومن كل من يتبعه .

١٠- أمر الله آدم أن يسكن الجنة هو وزوجه ويتمتعا بكل نعيم فيها إلا شجرة واحدة عيَّنها لهما ، وحرَّمها عليهما ، فإن أكلا منها صارا ظالمين .

١١- وسوسة الشيطان لهما ، وغرضه منها ، وأسلوب خداعه لهما .

١٢- ذوقهما الشجرة المحرَّمة ، وظهور سوءاتهما ، ومحاولتهما سترها بورق الجنة .

١٣- نداء الله وتذكيره لهما بنصائحه .

١٤- ندمهما على ما فعلا ، واستغفارهما الله .

١٥- أمر الله لهم بالهبوط إلى الأرض مع تحقيق العداوة بينهم ، واستقرارهم في الأرض .. والاستمتاع بها إلى حين معلوم .

١٦- إخبار الله لهم بما سيكون عليه حالهم في الأرض : حياة ، وموت ، فبعث .

● **عناصر القصة في «طه» :**

١- مدخل القصة .

٢- إخبار الله بأمره الملائكة بالسجود لآدم ، وامتثالهم الأمر .

٣- مخالفة إبليس أمر ربه .

٤- نصح الله لآدم وتحذيره له من الشيطان .

٥- بيان النِّعَم التي سيُنعَّم بها آدم وزوجه في الجنة .

٦- وسوسة الشيطان له ، وأسلوب خداعه .

٧- أكلهما من الشجرة المحرَّمة ، وظهور سوءاتهما ، ومحاولتهما سترها بورق الجنة .

٨- حكم الله على مسلك آدم حيث خالف هو وزوجه أمر الله وأطاعا إغراء الشيطان لهما .

٩- اجتباء الله آدم ، وتوبته عليه ، وهدايته له .

١٠- أمر الله لهم بالهبوط وترقب هُداه ، فمَن اتبع هُداه فهو في هدى وسعادة ، ومَن أعرض عن هدى الله شقى في الدنيا ، وساء مصيره في الآخرة .

● **عناصر القصة في «الإسراء» :**

١- إخبار الله بأمره الملائكة بالسجود لآدم ، وامتثالهم الأمر .

٢- مقولة إبليس ومحاجته ربه ، مبررًا لماذا لم يسجد لآدم ؟

٣- عناده وإعلانه لو أخِّرَ إلى يوم القيامة ليُضِلنَّ ذُرِّيةَ مَن كرَّم اللهُ عليه ـ يقصد آدم ـ إلا قليلاً منهم .

obeikan.com

٤- إمداد الله لإبليس في الغواية والإغواء متوعداً له ولمن تبعه بإدخالهم النار .

٥- بيان أن وعد الشيطان أولياءه ما هو إلا غرور .

٦- عصمة الله عباده ـ الأحقاء ـ من غواية إبليس ـ وسلبه كل سلطان عليهم ، فهم في مأمن منه .

● **عناصر القصة في «الحِجْر» :**

١- مدخل القصة .

٢- إخبار الله الملائكة أنه خالق بَشراً من صلصال من حمإٍ مسنون .

٣- أمره الملائكة بالسجود له إذا سوَّاه ، وامتثالهم هذا الأمر .

٤- مخالفة إبليس أمر ربه .

٥- سؤال الله ـ وهو أعلم ـ إبليس عن سبب مخالفته أمره بالسجود لآدم عليه السلام .

٦- اعتذار إبليس وحُجَّته .

٧- أمر الله إبليس بالخروج من الجنة وإحلال لعنة الله على إبليس .

٨- طلب إبليس من الله أن يجعله من المنظَرين إلى يوم البعث .

٩- استجابة الله له .

١٠- عناد إبليس وإعلانه تزيين المعاصي وإغواء الناس إلا المخصلين من عباد الله .

١١- إعلام الله إبليس بحصانة عباده المخلصين من إغوائه .

١٢- أن جهنم مصير مَن يتبع إبليس ، وأن الله أعد لهم سبعة أبواب يدخلون منها النار لكل باب منها فريق مقسوم .

● **عناصر القصة في «الكهف» :**

١- إخبار الله بأمره الملائكة بالسجود لآدم ، وامتثالهم هذا الأمر .

٢- مخالفة إبليس .

obeikan.com

٣- إنكار أن يتخذ الناس إبليس وذُرِّيته أولياء من دون الله ، وهو لهم عدو .

٤- مَن يتخذ الشيطان وليًّا من دون الله ، فبئس البدل بدله .

وبسورة الكهف تنتهي مصادر القصة في العهد المكي ، وتبدأ مرحلة جديدة في العهد المدني تتمثل في سورة البقرة .

● **عناصر القصة في سورة «البقرة» :**

١- إخبار الله الملائكة أنه جاعل في الأرض خليفة .

٢- تعجب الملائكة من هذا الجعل ، وسببان لهذا التعجب .

٣- رد الله عليهم .

٤- تعليم الله آدم الأسماء كلها .

٥- عرضهم على الملائكة ، ومطالبتهم بالإنباء بأسمائهم على سبيل الاختبار المؤدي إلى العجز .

٦- تنزيه الملائكة الله ، وتفويضهم الأمر إليه .

٧- أمر الله آدم أن يخبرهم بالأسماء ، وامتثال آدم عليه السلام هذا الأمر .

٨- استئثار الله بغيب السموات والأرض ، وعلمه بظواهر الأمور وبواطنها .

٩- أمر الله الملائكة أن يسجدوا لآدم وامتثالهم هذا الأمر .

١٠- مخالفة إبليس واستكباره وصيرورته من الكافرين .

١١- أمر الله آدم أن يسكن هو وزوجه الجنة وأن يتمتعا بما فيها من أنعام .

١٢- تحريم الله عليهما قربان شجرة فيها عيَّنها لهما،فإن قرباها صارا ظالمين.

١٣- إغواء الشيطان لهما ، وأكلهما من الشجرة المحرَّمة ، وإخراجه لهما مما كانا فيه .

١٤- أمر الله لهم بالهبوط من الجنة إلى الأرض مع تحقق العداوة بينهم واستقرارهم في الأرض واستمتاعهم فيها إلى حين .

obeikan.com

١٥- تلقي آدم كلمات من ربه ، وتوبة الله عليه .

١٦- تكرار الأمر بالهبوط وترقب هدى الله فمَن اتبع هدى الله آمن وسلم ، ومَن عصاه أدخله النار وأخلده فيها .

وبعد هذا التحليل لعناصر القصة في مصادرها الأصلية ننظر فيها على الوجه الآتي :

أولاً : المعاني المشتركة في جميع المصادر ، مع التعرض لفروق الصياغة ما أمكن .

ثانيًا : المعاني المشتركة في مجموعة دون أخرى ، مع التعرض لفروق الصياغة كذلك .

ثالثًا : المعاني التي لم تتكرر قط .

١- المعاني المشتركة في جميع المصادر :

المتأمل في نصوص القصة في جميع مصادرها يدرك أن المعاني التي لم يخل نص منها ـ بل هي مشتركة بينها كلها ـ هي المعاني الآتية :

(١) أمر الله الملائكة بالسجود لآدم .

(٢) امتثال الملائكة هذا الأمر .

(٣) مخالفة إبليس أمر ربه .

ففي «البقرة» جاء قوله : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (البقرة: ٣٤).

وفي «الأعراف» جاء قوله : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾

(الأعراف: ١١) .

وفي «الحِجْر» جاء قوله : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُۥ

سَٰجِدِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٤﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ (الحجر:٢٨-٣١).

وفي «الإسراء» جاء قوله : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾ (الإسراء:٦١) .

وفي «الكهف» جاء قوله : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ﴾ (الكهف:٥٠).

وفي «طه» جاء قوله : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴾ (طه:١١٦) .

وفي سورة «ص» جاء قوله : ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾
(ص:٧١-٧٤) .

فهذه المعاني الثلاثة وردت ـ كما ترى ـ في جميع المصادر لأنها العناصر الكبرى التي تدور حولها أحداث القصة .

ونلحظ من النظر في النصوص أن سجود الملائكة قد عطف في جميع المواضع على القول لهم بالسجود ، قد عطف بالفاء ، وهذا يفيد سرعة امتثال الملائكة لأمر ربهم وأنهم لم يترددوا قيد أنملة .

أما مخالفة إبليس فقد صورت بصياغة مختلفة ففي «البقرة» : ﴿ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (البقرة:٣٤) .

وفي «الأعراف» : ﴿ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ (الأعراف:١١).

وفي «الحجر» : ﴿ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ (الحجر:٣١).

وفي «الإسراء» : ﴿ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾ (الإسراء:٦١) .

وفي «الكهف» : ﴿ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ﴾
(الكهف:٥٠) .

وفي «طه» : ﴿ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ ﴾ (طه:١١٦).

وفي سورة «ص» : ﴿ إِلَّآ إِبۡلِيسَ ٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ (ص:٧٤).

والتفنن في العبارة قد أفاد إسناد أقبح أوصاف الذم للعين إبليس .

كما نجد فروقًا ـ كذلك ـ في التمهيد : ففي «البقرة» لم يتقدم عليها تمهيد ، أما في «الأعراف» فقد كان التمهيد صدر آية : ﴿ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَٰكُمۡ ثُمَّ صَوَّرۡنَٰكُمۡ ﴾ ، ثم قال : ﴿ ثُمَّ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ ﴾ (الأعراف:١١). والعطف بـ «ثم» المفيدة للترتيب مع التراخي يدل على أن في التعبير تجوزًا ، إذ ليس المخلوق والمصوَّر هم المخاطبين بل آدم عليه السلام ليصح الترتيب ، والمعنى : «خلقنا أباكم آدم طينًا غير مصوَّر ثم صوَّرناه بعد ذلك» .

والمجاز فيه مرسل والعلاقة المصححة هي المسببية ، إذ وجود المخاطَبين مسبب على وجود المراد بالحديث وهو آدم .

كذلك مهَّد لها في «الحِجْر» بالحديث عن خلق الجان والإنسان : ﴿ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ۝٢٦ وَٱلۡجَآنَّ خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾ (الحجر:٢٦،٢٧) ثم قال : ﴿ وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ﴾ (الحجر:٢٨).

أما «الإسراء» فلم يأت فيها تمهيد مثل «البقرة» ، وكذلك «الكهف».

و«طه» تقدَّم القصة فيها تمهيد هو في الواقع إجمال بديع للقصة كلها ، ومدخل لسرد أحداثها بالغ الجودة : ﴿ وَلَقَدۡ عَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبۡلُ فَنَسِيَ وَلَمۡ نَجِدۡ لَهُۥ عَزۡمٗا ﴾ (طه:١١٥) كان هذا هو مدخل القصة في «طه» ، كما سردت بعده أحداثها سردًا محكمًا .

وكذلك خلت سورة «ص» من التمهيد المباشر للقصة ، وبذلك تكون القصة قد مُهِّدَ لها في ثلاثة مواضع هي : الأعراف ـ الحِجْر ـ طه .

ولم يُمهِّد لها تمهيدًا مباشرًا في أربعة مواضع هي: البقرة ـ الإسراء ـ الكهف ـ سورة «ص».

وكذلك نجد فروقًا في الأمر بالسجود، فتارة يكون بصريح الأمر من الفعل «سجد» نفسه وذلك في خمسة مواضع هي: البقرة ـ الأعراف ـ الإسراء ـ طه ـ الكهف.

أما في الحِجْر وسورة «ص» فلم يأت بالأمر الصريح من الفعل، بل تقدَّم عليه «أمر» من فعل آخر «وقع» وجعل السجود حالاً، من فاعل ذلك الفعل الذين هم الملائكة، ومن دقة النظم أن هذه العبارات جاءت في السورتين في سياق حديث واحد: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ (الحجر: ٢٩)، (ص: ٧٢).

ولعل السر في هذا التصرف ـ ﴿ فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ بدلاً من: ﴿ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ ﴾ ـ أن التفصيل في هاتين السورتين في هذا الموضوع بالذات حيث قال: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾ بعد قوله في الحِجْر: ﴿ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ وبعد قوله في سورة «ص»: ﴿ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴾ أن هذا التفصيل فيه شرح أكثر لبيان قُدرة الله سبحانه وذلك أمر أدعى إلى تعظيم الله القادر، والانكباب من عَلٍّ على الجباه تقديرًا له حق قدره، وذلك لأن: ﴿ فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ في معنى الانكباب الفوري وهو معنى زائد على مجرد الأمر الوارد في المواضع الأخرى: ﴿ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ ﴾.

ويلاحَظ ـ كذلك ـ أن إحدى هاتين العبارتين جاءت في سورة «ص»، وسورة «ص» هذه هي أول سورة تحدثت عن القصة، وهي مكية، فإن سورة الحِجْر مكية كذلك، والقوم في مكة شديدو العناد للإسلام، فناسب حالتهم هذه التفصيل في القول والاتجاه به نحو القوة، وذلك ما تكفلت به السورتان: سورة «ص» والحِجْر.

● **ملاحظة جديرة بالتسجيل :**

هذه خلاصة وجيزة لما اشترك من عناصر القصة في جميع المصادر ، ونرى أن نذكر ملاحظة جديرة بالتسجيل هي أن الإشارة جاءت عابرة عن قصة آدم في سورة الكهف ، وهي إن اشتملت على العناصر الثلاثة التي لم يخل منها مصدر من مصادر القصة ، فإن جانب القصص غير ظاهر فيها .

وإنما جيء بها تمهيدًا لإنكار أن يتخذ الناس إبليس وذُرِّيته أولياء من دون الله .. والعهد المكي لم يكن في حاجة إلى تفصيل بعد أن تحدثت عنها خمس سور مكية في تفصيل ووضوح .

لذلك جاءت آية «الكهف» لمحة عابرة إلى حديث طويل معلوم وذائع أمره ، كما أن هذه السورة على وجازة ما جاء في آيتها من حديث القصة فإنها اشتملت على جديد لم يُصرَّح به في غيرها .

وذلك الجديد هو : ﴿ إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓ ﴾ (الكهف:٥٠) فنسبته إلى الجن ، والحكم عليه بالفسق لم يرد إلا في آية «الكهف» ، وهذا يعطينا قيمة عظيمة هي أن القصة المتكررة في القرآن لم تخل من جديد وإن قصرت في موضع دون آخر .

٢- المعاني المشتركة بين مجموعة دون أخرى :

من المعاني المشتركة بين مجموعة دون أخرى : سؤال الله ـ سبحانه ـ إبليس عن عدم امتثاله لأمره وما ترتب على ذلك من أمور .

وقد ورد هذا السؤال في ثلاثة مصادر .

الأول : الأعراف ، قال سبحانه : ﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ إِذۡ أَمَرۡتُكَۖ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ۝١٢ قَالَ فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخۡرُجۡ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ۝١٣ قَالَ أَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ۝١٤ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ۝١٥ قَالَ فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝١٦ ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن

شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ ٱخۡرُجۡ مِنۡهَا مَذۡءُومٗا مَّدۡحُورٗاۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ (الأعراف:١٢-١٨) .

الثاني : الحِجْر ، قال سبحانه : ﴿ قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمۡ أَكُن لِّأَسۡجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقۡتَهُۥ مِن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيۡكَ ٱللَّعۡنَةَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسۡتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوۡعِدُهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبۡعَةُ أَبۡوَٰبٖ لِّكُلِّ بَابٖ مِّنۡهُمۡ جُزۡءٞ مَّقۡسُومٌ﴾

(الحجر:٣٢-٤٤).

الثالث : سورة «ص» ، قال سبحانه : ﴿ قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُۖ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيۡكَ لَعۡنَتِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَٱلۡحَقُّ وَٱلۡحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ (ص:٧٥-٨٥) .

والباحث يرى أن السؤال قد اختلف في صياغته من موضع إلى آخر ، وأنه قد ترتب عليه أمور :

١- اعتذار إبليس وحُجَّته أنه مخلوق من نار ، وآدم من طين مع اختلاف في الصياغة .

٢- ردٌّ عليه من الله رافض لعذره وآمر له بالخروج أو الهبوط من الجنة ، منكر عليه أن يتكبر فيها ، موجب عليه اللعنة مع الاختلاف في طرق تعريف اللعنة . مرة بـ «الـ» ، وأخرى بالإضافة إلى الله .

٣- طلب إبليس أن ينظره ربه إلى يوم البعث ، واستجابة الله له .

٤- إعلان إبليس ـ مقسمًا مرة ، ومعللاً أخرى ـ ليغوين الناس إلا مَنْ يعصمه الله .

٥- إعلام الله إبليس بحصانة عباده المخلصين ، وتوعده لإبليس بأن يملأ منه جهنم وممن اتبعه أجمعين .

٦- إن في المواضع الثلاثة فروقًا دقيقة في الصياغة ، وفي تصوير المعاني ، سواء فيما قاله الله لإبليس أو فيما حكاه القرآن من مقولة اللعين .

٧- إن سورة الإسراء تشترك معها فيما ترتب على السؤال دون أن يرد فيها ذكر له لأن مقولة إبليس فيها نزلت منزلة إبائه السجود :

﴿ إِلَّآ إِبۡلِيسَ قَالَ ءَأَسۡجُدُ لِمَنۡ خَلَقۡتَ طِينٗا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيۡتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِي كَرَّمۡتَ عَلَيَّ لَئِنۡ أَخَّرۡتَنِ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَأَحۡتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذۡهَبۡ فَمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمۡ جَزَآءٗ مَّوۡفُورٗا ﴿٦٣﴾ وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم بِصَوۡتِكَ وَأَجۡلِبۡ عَلَيۡهِم بِخَيۡلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِ وَعِدۡهُمۡۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٞۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلٗا ﴾ (الإسراء: ٦١-٦٥) .

- **ملاحظات :**

ويرى الباحث ـ كذلك ـ أن هذه العناصر التي اشتركت فيها كل من الأعراف ، والحِجْر ، وسورة «ص» ، والإسراء ، كان مهدها مكة لأن هذه السور مكية النزول ، وحال القوم في مكة من الإعراض والصدود والجدل العقيم في محاربة الدعوة الجديدة تناسبه عناصر القصة المذكورة بما فيها من قوة وعنف في الرد على إبليس وتوعده بالعذاب هو ومَن اتبعه ، كما أن رفض

الحُجَّة التي بنى عليها اللعين اعتذاره وإهدارها من الأساس شبيه برفض الإسلام لدعاوى وحجج المعاندين من مشركي مكة .

كما يرى الباحث أن اختلاف الصياغة من موضع إلى آخر أمر اقتضاه المقام ولم يكن مجرد اتفاق .

ونضرب لذلك مثلاً :

قال إبليس في «الحِجْر» معتذرًا عن مخالفته أمر ربه : ﴿ **قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ** ﴾ (الحجر:٣٣) .. بينما نسب خلقه إلى الطين في كل من الأعراف والإسراء وسورة «ص» .

والطين سابق على الصلصال والحمأ المسنون ، قال الراغب : الصلصال تردد الصوت من الشيء الجاف ومنه قيل : صل المسمار ، وسمى الطين الجاف صلصالاً قال : ﴿ **مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ** ﴾، ﴿ **مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ** ﴾[1] .

فأوثر الصلصال في «الحِجْر» لتقدمه في قوله تعالى : ﴿ **إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ** ﴾ (الحجر:٢٨) ولعل إيثار هذا أيضًا على أن يقول : «من طين» لأن مبدأ خلق الإنسان هنا قوبل بمبدأ خلق الجان ، ولما قال في خلق الجان : ﴿ **مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ** ﴾ ناسب أن يكون المقابل له : ﴿ **صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ** ﴾ لأن الطين إذا قوبل بالنار جف ويبس وسُمِعَ له صوت إذا حُرِّك .

ومما يؤيد هذا قوله في الرحمن : ﴿ **خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ۝١٤ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ** ﴾ (الرحمن:١٤،١٥) . فآثر الصلصال في مقابلة المارج الذي من نار .

أما إيثار الطين في الأعراف والإسراء وسورة «ص» فحيث لم يقتض المقام سواه ولأنه أسبق وجودًا من الصلصال .

---

(١) مفردات القرآن للراغب الأصفهاني : ص ٢٨٤ .

هذا مثل أذكره للقياس ولبيان أن كل اختلاف في الصياغة إنما هو لسبب وداع ، وليس لمجرد التعبير الخالي من الدقائق والأسرار .

ومن المعاني التي اشتركت فيها مجموعة دون أخرى : أمر الله آدم وحواء أن يسكنا الجنة بعد طرد إبليس منها .

وهذه مرحلة تالية في بناء القصة للمرحلة السابقة من مخالفة إبليس وعناده وما ترتب عليها .

فلننظر في مصادرها وصياغاتها :

- **سكنى الجنة :**

جاء أمر الله لآدم عليه السلام أن يسكن الجنة هو وزوجه في ثلاث سور :

الأولى : «البقرة» ، قال سبحانه : ﴿ **وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ** ﴾

(البقرة:٣٥) .

الثانية : «الأعراف» ، قال سبحانه : ﴿ **وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ** ﴾

(الأعراف:١٩).

الثالثة : «طه» ، قال سبحانه : ﴿ **فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ** ﴾ (طه:١١٧-١١٩) [1] .

ولعل أول ما يلاحظه الباحث في هذه النصوص الثلاثة أن الأمر بالسكنى في الجنة جاء صريحًا في آيتي البقرة والأعراف ، وخولف ذلك في طه لأن ما فيها نصح وتحذير لآدم وزوجه من إغواء الشيطان لهما ، لأنه لهما عدو ، فجاء قوله

---

(١) الراجح في إفراد الخطاب هنا ـ كما أرى ـ هو أن آدم بما يحمل من مسئولية القوامة وتدبير أمر الأسرة يكون أول مَن يشعر بالشقاء .

تعالى : ﴿ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴾ دليلاً على تمكنهما من الجنة ، حيث نهاهما الله أن يخرجهما منها الشيطان .

وفي طه ـ كذلك ـ تفصيل لمظاهر النعيم التي كانا ينعمان بها في الجنة ، ويقابل هذا التفصيل في البقرة والأعراف الإذن لهما بأن يتمتعا بما شاءا حيث كانا فيها مع زيادة وصف الأكل بـ «الرغد» في البقرة .

كما يلاحظ الباحث أن آية البقرة قد صُدِّرت بقوله : ﴿ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ﴾ ، أما الأعراف فقد حُذِفَ منها القول وصُدِّرَت بالنداء وحده : ﴿ يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ ﴾ ، كما صُدِّرت آية طه بالقول مسبوقًا بالفاء دون الواو كما في البقرة : ﴿ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ ﴾ .

ولعل السر في ذلك أن القول في البقرة عطف على نظيره في صدر الآية السابقة : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ ﴾ .

أما في الأعراف فقد حُذِفَ القول ، وبُدِئَ في خطاب آدم بالنداء لأنه قد سبق عليه قوله تعالى : ﴿ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (الأعراف:١٨) فلو قال بعده : «وقلنا ..» لتوهم متوهم أن «قال» في الآية السابقة ليست من قول الله لإسناده إلى ضمير الغائب وإسناد «قلنا» لضمير المتكلم ، وقد عرفنا حرص القرآن على إسناد القول إلى ضمير المتكلم في موضع الأمر بالسكنى لآدم وزوجه .

والأظهر هنا أن الواو للاستئناف في : ﴿ يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ ﴾ حتى تظهر المغايرة التامة بين مأمور بالخروج مذءومًا مدحورًا ، ومأمور بالتمكن معزَّزًا مكرَّمًا .

أما العطف في طه بـ «الفاء» : ﴿ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ ﴾ فلما في «الفاء» من الترتيب والتعقيب ، وما تفيده كذلك من معنى السببية ، إذ تقدَّم عليها امتناع إبليس عن السجود له .

فأبان العطف بـ «الفاء» ترتب نصح الله لآدم على امتناع إبليس عن السجود ، وأن ذلك حدث دونما فصل بين الامتناع والنصح ـ هذا من حيث

الترتيب والتعقيب ـ أما من حيث السببية فإن كون إبليس ممتنعًا عن السجود لآدم ، فذلك سبب في أنه عدوهما والحقود عليهما .

● **وسوسة الشيطان لهما وما ترتب عليها :**

وهذه المرحلة من القصة قد اشتركت في الحديث عنها مجموعة من السور هي :

«البقرة» قال سبحانه : ﴿ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾

(البقرة:٣٦،٣٧) .

«الأعراف» قال سبحانه : ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ﴾ (الأعراف:٢٠-٢٢).

تلك هي مواضع ورود مرحلة وسوسة الشيطان لآدم وزوجه ، حسدًا منه وحقدًا عليهما على أن بقيا في الجنة وطُرِدَ منها .

والذي نلاحظه هنا أمور :

أولاً : أن السورتين المكيتين اتفقتا في التفصيل والتعبيرعن إغواء الشيطان لهما بالوسوسة ، بينما عبَّرت عنه السورة المدنية بالإذلال ، كما جاءت فيها المعاني مجملة .

ثانيًا : أن التفصيل في كلتا السورتين المكيتين ـ مع اختصاص الأعراف بنصيب وافر فيه ـ صوَّرَ لنا لقطات هامة هي : الغرض من الوسوسة ـ أسلوب الخداع الذي سلكه اللعين في الإضلال ، وهذا الأسلوب اعتمد على الإغراء

والتأكيد بالقسم ـ بدو سوءات آدم وحواء ـ اجتهادهما في سترها بورق الجنة ، تأنيب الله لهما على ما بدر منهما ، ومخالفتهما نصحه .

ثالثًا : أن البقرة وطه اتفقتا في الإشارة إلى توبه الله عن آدم واجتبائه له ، وانفردت الأعراف بالحديث عن تندمهما ودعائهما ربهما بالمغفرة والرحمة ، فكأن ما في البقرة وطه من الإشارة إلى التوبة واجتباء الله لآدم استجابة لذلك الدعاء الذي انفردت به الأعراف خاصة وأن كُلاًّ من السورتين ـ طه والبقرة ـ نزلتا بعد الأعراف ، إذ أن الأعراف هي السورة الثانية التي تحدثت عن قصة آدم بعد سورة « ص » ، وهذا يفسر لنا سر التفصيل فيها لهذه المرحلة أكثر مما ورد في طه ، وهي قسيمتها فيه ..

• أمر الله لهم بالهبوط إلى الأرض :

وهذه مرحلة جاءت في بعض المصادر دون بعضها .. ومصادر ورودها هي :

« البقرة » قال سبحانه : ﴿ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾ (البقرة:٣٨،٣٩) .

« الأعراف » قال سبحانه : ﴿ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴾ (الأعراف:٢٤،٢٥) .

« طه » قال سبحانه : ﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ (طه:١٢٣-١٢٧) .

من التأمل والمقارنة بين هذه النصوص يخرج الباحث بما يأتي :

أولاً : أن الأمر بـ «الهبوط» جاء بصيغة الجمع في البقرة والأعراف لأن المخاطب ثلاثة : آدم وزوجه وإبليس .

وجاء بصيغة التثنية في طه ، ولعل سره أن المأمور بالهبوط فريقان : آدم وزوجه فريق ، وإبليس فريق آخر .

ثانيًا : أن الأمر في البقرة وطه قد اقترن ضمير المخاطَب فيه بالتوكيد بلفظ : «جميعًا» ولم يرد ذلك في الأعراف .

ثالثًا : أن التصريح بـ «ثبوت العداوة بينهم» أمر مشترك بين الأعراف وطه ، أما آية البقرة هنا فقد خلت منه ، لأنها جاءت تأكيدًا بالهبوط للآية التي قبلها ، وفيها صرَّح الله بثبوت تلك العداوة ، فاكتفى بها .

رابعًا : أن ترقب هُدى الله قد صُرِّح به في كل من البقرة وطه .. ولم يأت في الأعراف إطلاقًا .

خامسًا : أن بيان أن «مَن اتبع الهدى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون» ، أو «فلا يضل ولا يشقى» من خصائص سورتي البقرة وطه مع اختصاص طه بشيء من التفصيل إذا ما قورنت بالبقرة ، هذا البيان لم يرد في الأعراف ، لأنه تابع لترقب الهُدى الذي لم يرد فيها كما مَرَّ .

سادسًا : التصريح بـ «الاستقرار في الأرض والتمتع فيها إلى حين» من خصائص سورتي البقرة والأعراف ، فيما تقدم عن هذه الآية ، والأعراف في الآية المذكورة مع اختصاص الأعراف بشرح تفصيلي لأدوار سُنَّة الله التي سيخضعون لها في الأرض قال : ﴿ **قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ** ﴾ (الأعراف:٢٥) .

ولكل من هذه الفروق دواع ومقتضيات يطول بنا الحديث لو تتبعناها ، على أن هناك فروقًا دقيقة بين الألفاظ المتقابلة في هذه المواضع ، نضرب مثلاً بواحد منها .

فقد جاء في البقرة : ﴿ فَمَن تَبِعَ هُدَايَ ﴾ (البقرة:٣٨) .

وجاء في طه : ﴿ فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ ﴾ (طه:١٢٣).

الفعل « تبع » مخفف في البقرة ومُشدَّد في طه ، يقول جماعة : « إن تشديد الاتباع لسبق التصريح بمعصية آدم ، وقد سبقه أيضًا الاتباع مشددًا في نفس السورة في قوله تعالى : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ﴾ (طه:١٠٨)[1]، وفي توجيه التشديد وعدمه آراء أُخَر لعل هذا أقواها .

وتوجيه آخر أراه حريًّا بالقبول ، هو أن القرآن في مكة كان يتجه كثيرًا نحو القوة والعنف لغلظة القوم وتماديهم في الضلال ، بخلاف المدني الذي كان يميل إلى الهدوء والشرح والتفصيل .

هذه آخر مرحلة يتحدث عنها العهد المكي ـ مرحلة الهبوط من الجنة والاستقرار في الأرض ـ وقد اشترك العهد المدني معه في بيان هذه المراحل مع الفروق التي لحظناها بين النصوص جميعًا .

لكن بقي هناك شيء هام ، وهام جدًّا لم ترد إليه إشارة واحدة في العهد المكي ، وإنما استأثر به العهد المدني ، شيء هام تكاد حكاية القصة في المدينة تختلف به عن حكايتها في مكة اختلافًا أساسيًّا ، أن العهد المدنى قد أضاف جديدًا إلى هذه القصة .. فما هو ذلك الجديد ؟

● الجديد في القصة في العهد المدني :

إن الجديد الذي ورد في العهد المدني عناصر بارزة في القصة أرجأها الله تعالى فلم ترد في المكي ، وهي تتمثل فيما يلي :

أولاً : جاء فيه أنه قال للملائكة : ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ (البقرة:٣٠) ، ولم يقل لهم كما قال في المكي : ﴿ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴾ (ص:٧١) ـ مثلاً ـ كما في سورة « ص » .

---

(١) المناهج الجديدة في تفسير آيات الله المجيدة ص٧٩ ـ الدكتور عبد الغني الراجحي .

وجعل آدم خليفة مرحلة أرقى من خلقه ولاحقة به في الوجود .

ثانيًا : جاء فيه أن الملائكة تعجبوا من هذا الجعل وبنوا تعجبهم على وصفين في المجعول ، ووصفين فيهم .

أما الوصفان اللذان في المجعول : فكونه مفسدًا في الأرض وسافكًا للدماء .

وأما الوصفان اللذان فيهم : فكونهم مسبِّحين بحمد الله ومقدِّسين له .

فردَّ الله عليهم بأنه يعلم ما لا يعلمون .

ثالثًا : وجاء فيه تعليم الله آدم الأسماء كلها ومسمياتها وأعده بذلك لمباراة بينه وبين الملائكة ليتحقق له الانتصار عليهم .

رابعًا : وجاء فيه أن الله عرض المسميات على الملائكة وطلب منهم أن ينبئوه بها فلم يستطيعوا وفوَّضوا الأمر إلى الله مسبِّحين له .

خامسًا : وجاء فيه أن الله أمر آدم أن ينبئهم بالأسماء ففعل ، فلما أنبأهم بأسمائهم قال الله لهم : ﴿ **أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ** ﴾ (البقرة:٣٣) .

وأول ما يلاحظه الباحث ـ هنا ـ أن نص السورة (البقرة) حين اشتمل على معان جديدة لم ترد في غيره قبلاً ، كما وضحناها آنفًا ، واشتمل على معان تحدثت عنها السور المكية ، فإنه في بناء القصة في المدينة قدَّم القرآن المعاني الجديدة ، وبعد الفراغ منها ساق المعاني التي وردت في العهد المكي ، وبذلك اكتمل بناء القصة ، ولم يعد فيها موضع لإضافة جديدة .

في المدني كانت عبارة : ﴿ **إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً** ﴾ (البقرة:٣٠) بديلاً عن عبارة : ﴿ **إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا** ﴾ (ص:٧١) .

لأن العهد المكي كان عهد تكوين في كل شيء .. تكوين للعقيدة الصالحة ، تكوين للأخلاق الإنسانية الفاضلة ، تكوين لجماعة تؤمن بالحق وترفض الباطل ، فناسبه من قصة آدم عليه السلام مراحل التكوين الأولى ، مراحل الخلق والإيجاد من الطين أو الصلصال والحمأ المسنون .

أما «الجعل» فمناسب للعهد المدني لأنه طور لاحق للإيجاد والخلق ، ولأن مفعوله خليفة ، والخلافة مجعولة لآدم متنقلة في ذُرِّيته جيلاً بعد جيل لأن في الجعل معنى التحويل من شيء إلى شيء .

قال العلامة العمادي[1] في تفسير أول سورة الأنعام :

«والجعل هو الإنشاء والإبداء كالخلق ، خلا إنه مختص بالإنشاء التكويني وفيه معنى التقدير والتسوية ، وهذا عام له كما في قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ﴾ (الأنعام:١) ، وللتشريعي كما في قوله تعالى : ﴿ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ﴾ (المائدة:١٠٣) . وأيًّا ما كان فهو إنباء عن ملابسة مفعوله بشيء آخر يكون فيه أو له أو منه» .

فالخلق لا يُطلق إلا على الإيجاد والإبداع ، أما الجعل فقد يُستعمل في معنى الخلق ، وقد يفارق ذلك المعنى إلى معان أخرى كما ذكره العمادي ، ولذلك وضع بإزاء الخلافة لأن الخلافة مجعولة لا مخلوقة .

ومن ملائمات القصة في البقرة للعهد المدني أن اليهود كانوا في المدينة وهم أهل كتاب ، ولهم بماضي الأمم وحقائق الخلق دراية ، فجاءهم القرآن بتفاصيل دقيقة من جعل الخلافة لآدم ، ومحاورة الملائكة ربهم ، وتعليم آدم الأسماء ، وعجز الملائكة عن التنبؤ بها ، وتحقيق ذلك لآدم .

ومن تلك الملائمة أيضًا قوله تعالى : ﴿ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ﴾ (البقرة:٣٣).

فهذه العبارة تؤدي إلى جانب المقصود منها معنى آخر هو تهديد ظاهرة النفاق التي جدَّت في المدينة ولم تعرف عنها مكة شيئًا .

فيها تهديد لهم بكشف أسرارهم وإظهار خفاياهم لأن النفاق يقوم على كتمان الكفر وإظهار الإيمان والطاعة .

---

(١) هو العلامة أبو السعود صاحب التفسير المشهور بـ «إرشاد العقل السليم» .

● **ملاحظة مهمة أخرى :**

ومن الملاحظات الهامة في نصوص القصة كلها في جميع مصادرها أن بعض المعاني تُذكر مع بعض معيَّن ، فإذا لم يُذكر ذلك البعض المعيَّن لم يذكر ـ كذلك ـ ما جرى المنهج القرآني على ذِكره معه .

فسؤال الله إبليس عن عدم السجود يُذكر معه بعد اعتذاره طلب إبليس من ربه أن يجعله من المنظَرين ، ويُذكر معه ـ كذلك ـ إعلان إبليس تصديه لإضلال الناس إلا عباد الله المخلصين .

وهذا المعنى جاء في كل من سورة « ص » ـ والحِجْر ـ والإسراء . ولم يرد في هذه السور الثلاث الأمر لهم بالهبوط من الجنة إلى الأرض .

وإذا ذُكِر الهبوط من الجنة إلى الأرض ، ذُكِر معه ترقب الهُدى ، فمَن اتبعه هَداه إلى الحق ، ومَن خالفه هلك .

وقد ذُكِر هذا المعنى في سورتي البقرة وطه ، ولم يخالف هذا المنهج إلا في الأعراف حيث ذُكِر فيها الهبوط ولم يُذكر ترقب الهُدى ، ولعل السر في ذلك أن طه نزلت بعد الأعراف مباشرة فأرجى ذلك إليها .

كذلك فإن إعلان توبة الله على آدم عليه السلام قرينة ذكر الهُدى وترقبه ذلك في البقرة وطه .

إن المنهج القرآني يسير على اعتبارات دقيقة في بناء القصة وائتلاف أجزائها ، وتظهر هذه الجوانب الحكيمة كلما أطال الباحث النظر في نصوصه وقارن ودرس واستنتج .

وفوق هذه العناصر المشتركة بين كل النصوص ، ثم المشتركة بين مجموعة دون أخرى نجد لكل نص ملامح خاصة لم تأت فيما عداه ، فما هي إذن ؟

● **الملامح الخاصة بكل مصدر من مصادر قصة آدم :**

نضرب مثلاً ، ولا نستقصى ، وليكن ذلك بحسب وضع السور في المصحف ، ولنبدأ بسورة البقرة .

إن العهد بهذه السورة ليس ببعيد ، إذ يكاد ما جاء بها يكون ملامح خاصة لها .. فليس فيها مكرر سوى أمر السجود والهبوط وترقب الهُدَى ، وما عدا ذلك فخاص بها .

والأعراف : اختُصت فيما اختُصت به بذكر تندم آدم وحواء ودعائهما الله بالمغفرة والرحمة وإلا كانا من الخاسرين .

والحِجْر : اختُصت بذكر الصلصال والحمأ المسنون ، وبذكر السبعة الأبواب للنار وأن لكل باب جزءًا مقسومًا .

والإسراء : اختُصت بوضع مقولة إبليس موضع إبائه السجود ، وبالتصريح بحقده على آدم : ﴿ أَرَءَيْتَكَ هَـٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ ﴾ (الإسراء:٦٢) وبالإمداد له في الضلال ، وأن يجلب عليهم بخيله ورجله ، وأن يشاركهم في الأموال والأولاد ، وأن وعده لهم ما هو إلا غرور .

والكهف : اختُصت بوصف إبليس بأنه كان من الجن وأنه فسق عن أمر ربه ، وبإنكار أن يتخذ هو وذُريته أولياء من دون الله .

وطه : اختُصت بإجمال جامع ورد على وجه التمهيد للقصة : ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴾ (طه:١١٥) .

وبتفصيل النعيم الذي سيلقاه آدم وحواء في الجنة ، وبأن الله اجتبى آدم وهداه .

وسورة « ص » : اختُصت بقوله تعالى : ﴿ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ﴾ (ص:٧٥) ... إلى غير هذه الأمور يطول بنا الحديث لو تتبعناها جزئية جزئية ، وكم في هذه النصوص من الحِكم والأسرار ؟

- **لماذا اختلفت أساليب الحكاية والمحكى عنه واحد :**

هذا سؤال نعيده مرة أخرى بعد أن أشرنا إليه في مدخل البحث ، فما جوابه إذن ؟

● **الجواب :**

أولاً : أن الاختلاف راجع في الأغلب إلى اختلاف الأحوال ، ففي كل عبارة جاءت على نهج معيَّن رعاية ومناسبة لمقام الحديث ، ويتصل بهذا المظهر من مظاهر التحدي حيث يكون المعنى الأصل واحداً ، وتحدث بتكراره زيادات ومعان ثانية لم يزدد بها إلا حلاوة وطلاوة .

على خلاف المعهود في بلاغة الناس ، فإن التكرار فيه يُعرِّضه للقوة والضعف والتهافت وإن وُفِّقَ في موضع خُذِلَ وسقط في موضع آخر .

ثانيًا : الفروق اللفظية التي يجيء عليها المكرر عندما نبحث عن أسرارها يتجلى لنا بوضوح لماذا آثر القرآن لفظًا على لفظ ، وأسلوبًا على أسلوب مما يؤدي في النهاية إلى الإقرار اليقيني بإعجاز القرآن .

ثالثًا : يقول الإمام البقاعي في تفسيره سورة البقرة : « إن المقصود من حكاية القصص في القرآن إنما هي المعاني ، فلا يضر اختلاف اللفظ إذا أدى جميعها ولم يكن هناك تناقض ، فإنها كانت حين وقوعها بأوفى المعاني ، ثم إن الله تعالى يُعبِّر لنا في كل سورة يذكر القصة فيها بالألفاظ المناسبة للمعاني ، ويطرح ما لا يقتضيه المقام »[1] .

● **خلاصة :**

ذلك هو جانب التكرار في القرآن الكريم ، فليأت قصاصو العالَم بأدب مثله ، وليرنا الطاعنون أين موضع العيب فيما جاء في القرآن مكرراً ؟ وإلا فكفى لغواً .

فإن كانوا مكابرين قلنا لهم :

كَنَاطِحِ صَخْرَةً يَوْمًا لِيُوهِنَهَا ... فَلَمْ يَضِرْهَا . وَأَوْهَى قَرْنَهُ الوَعِلُ

وإن كانوا ضالين قلنا لهم :

وَإِذَا كُنْتَ لَمْ تَرْ الهِلالَ فَسَلِّمْ ... لأُنَاسٍ رَأَوْهُ بِالأَبْصَارِ

* * *

(١) المناهج الجديدة في تفسير آيات الله المجيدة ص٣٩ ـ الدكتور عبد الغني الراجحي .